

الفصل السادس

سأخر تصوف
الدروس ليونارد هكسلي

١٨٩٤ - ١٩٦٣

الدوس هكسلى . .

ساخر تصوف

مبانيه :

يعتبر الدوس ليونارد هكسلى من الكتاب الصامتين الذين قلبا يتحدثون عن أنفسهم ولهذا يجد الباحث صعوبة فى الحصول على مادة تعينه على التعرف على الجوانب العديدة لحياته الشخصية. ولهكسلى من سعة الاطلاع والقدرة على تشكيل أفكاره والحركة المستمرة مايجعل الباحث يجد فى كتبه كل مايبحث عنه وقد تعرض لإنتاجه الأدبى كثير من النقاد وكتبت عنه الصحف والمجلات لاسيما بعد نشره لقصته « عالم جديد شجاع » عام ١٩٣٢ وتنبأ فيها بما سيحدث فى المستقبل عندما ينجح العلم الحديث فى « تفريخ » الجنس البشرى . ولكنه نشر فى عام ١٩٥٦ كتابه « زيارة ثانية للعالم الجديد الشجاع » وفيه استعرض ماقد تم فعلا من تذبوانه السابقة وقارن بين كتابه وكتاب جورج أورويل « ١٩٨٤ » . وفى معظم الدراسات التى ظهرت حتى الآن لحياته ومؤلفاته . لازالت صورة الدوس هكسلى كساخر تطفى على صورته كمتصوف ولم تظهر دراسة وافية شاملة تتبع تطوره الفكرى وتشرح أسباب اهتمامه بمستقبل البشرية وتحوله إلى التصوف . وفى هذا البحث سنحاول أن نثبت وجه الشبه الكبير بين هكسلى وأبطال قصصه كلها ، وسنكون مفكرات أبطاله ويومياتهم فى قصصه بالإضافة إلى مقتطفات من كتب رحلاته مصدر المادة التى ستعيننا على تفهم سيرته . ونأمل أن نعطى لشخصيته صورة متتابعة ومن زوايا مختلفة ثم ندعها تتكلم بلسانها وتعبّر عن كل جانب من جوانبها .

وفى هذه الدراسة لابد من أن نوفق بين البواعث والدوافع النفسية والتكوين الجسدى والمزاج الشخصى من جهة والإنتاج الأدبى من جهة

أخرى . فلن يفوتنا أن نرسم له صورة جسمانية من واقع قصصه ومقالاته ورسائله وكتب رحلاته ، وكان هكسلى دائماً يشعر بالهزال والتوعل وفقدان الشهية وكثيراً ما قامى من ضعف بصره ومن الإمساك المزمن واضطرابات المعدة وأمراض الكبد والصفراء وتوفى على أثر إصابته بسرطان المعدة . والمزاج الشخصى والتكوين الجسدى أثرهما فى الدوافع النفسية وبالتالى فى العمل الأدبى ويقول هكسلى : « كل فلسفة فى الحياة تبدأ بإحساس أو شعور عميق أو مزاج شخصى وتنتهى برأى » .

ولابد للأديب من تغيير وجهة نظره على مر السنين وفى هذا يقول : « لقد حاولت أن أجبر نفسى على أن أكون تجسيدا لمبدأ أو أن أصبح نظاماً ، يسير على قدمين ... ولكن الإنسان لا يصبح ثابتاً إلا إذا تحجر .. ولهذا أؤثر أن أظل حراً وحيّاً وفى خطر على أن أصبح كاللومياة وفى أمان .. » .

ولا يستطيع الأديب أن يتخلص من مزاجه الشخصى أو تكوينه الجسدى إلا بشق النفس ، وهناك صراع دائم بين شخصية هكسلى الأديب وهكسلى كما هو . ويقول « يونج » ، « كل إنسان خلاق يعد إنساناً له شخصيتان أو خليطاً من المواهب المتناقضة . فهو إنسان له حياته الخاصة وفى الوقت نفسه « عملية » خلق غير ذاتية ، ويقول هكسلى « إن كل فنان يسرد قصته إنما يسردها علينا بطريقة الخاصة وهذه الطريقة تحوى قصة أخرى متداخلة مع القصة الأولى ، قصة عن الفنان نفسه ، قصة إنسان موهوب وكيف يقتنص تجاربه من العالم حوله . والقصة الأولى تسرد نفسها عن عمد والقصة الثانية تسرد نفسها دون وعى من الفنان ، فهو لا يستطيع أن يتجنبها لأنها تعبر عن ذاته الخاصة ، تعبر عن مزاجه وتكوينه العاطفى الذى ولد به وعن شخصيته التى صقلها هو وكذلك الدوافع الكامنة التى تكونت من تفاعل مزاجه الشخصى وشخصيته التى صقلها والظروف المحيطة به » .

وإذا ضعف الجسد واشتد الطموح والذكاء فالطريق هو طريق الإنطواء والعزلة لا طريق المغامرات والعنف ، أو طريق التأمل والتعاشيس السلبى والتصوف لا طريق التهمك والسخرية أو الشهوات والغرائز . فالمفكر أو الأديب أولاً وآخرها كائن حى . وصفة الإزدواج فى التفكير ظاهرة كل الظهور فى أعمال هكسلى فى الفترة الأولى فنجد البدء شعر بقوة الشهوة إلى حد كبير واستمر لفترة طويلة أسيراً لشیطانہ يحاول ما استطاع أن يظفر به وينتصر عليه .

ومايهما فى هذا البحث هو التحول العظيم فى حياته من السخرية والإحباط إلى التكامل فى الشخصية والجدية فى الكتابة والنقد والبناء والشعور بالمسئولية عن طريق الفلسفة الهندية السلمية والتصوف . فى الفترة الأولى (١٩١٦ - ١٩٢٧) من حياته الأدبية الطويلة لم ينبج من قلبه اللاذع أى شىء . ولكنه سرعان ما وجد أن هذا الطريق طريق مسدود لا يقود إلى الخير أو الخلاص أو اكتمال الشخصية .

وبدأت فترة الصراع النفسى العصبى تميز كتيبه فى الفترة الثانية (١٩٢٨ - ١٩٣٤) حتى فصل إلى الفترة الثالثة والأخيرة (١٩٣٥ - ١٩٦٣) ونرى فيها التكامل والتصوف واضحين .

ولد هكسلى فى عائلة تبرز فيها أسماء لامعة فى الأدب والعلوم ونرى أثر ثقافته المتنوعة فى كتيبه بشكل واضح ، فهو شقيق سير جوليان هكسلى العالم البيولوجى المعروف وكان والده الكاتب والمحرر ليونارد هكسلى أكبر أبناء توماس هنرى هكسلى ، والدته جوليا آرنولد ابنة توماس آرنولد أعظم ناظر مدرسة ومعلم فى القرن الماضى وهو شقيق الشاعر والناقد الفكتورى ماثيو آرنولد . وكانت عمته ، التى تولت تربيته بعد وفاة والدته ، هى مسز همفرى وارد القصصية الفكتورية . ومنذ نعومة أظفاره نشأ هكسلى فى جو علمى أدبى وكان مقديراً له أن يصبح إما أديباً أو عالماً .

ولقد كان هكسلي كاتباً مخلصاً دائماً ونشر أكثر من خمسين كتاباً في الشعر والقصص والرحلات والنقد والتصوف وكان له شهرة دولية ولم يبلغ الثلاثين من عمره وترجمت معظم كتبه إلى كثير من اللغات . وقام برحلات عديدة في أوروبا وأمريكا والهند وزار مصر مرتين . وفي هذه الرحلات احتك بثقافات وعادات وحضارات مختلفة وأصبح له سيطرة على مادته المتشعبة الغزيرة . وقد زج بنفسه في كل عمل ذهني على أدبي فلسفي ديني . وحين قدم على شاشة التلفزيون في محطة الإذاعة البريطانية وصفه مقدم البرنامج بأنه السكاتب الذي له عقل كدائرة المعارف البريطانية . ويقول هكسلي ان هوايته في السفر قراءة دائرة المعارف على ظهر الباخرة ، ويقول لنا أخوة سير جوليان إنه دائماً يطلب وضع أجزاء دائرة المعارف في صندوقين ويحملهما معه أينما ذهب .

وولد هكسلي في ٢٦ يوليو عام ١٨٩٤ وتلقى تعليمه الأولي في مدرسة ابتدائية وبعدها في « إيتون » الذي ذهب إليها أثر حصوله على منحة في عام ١٩٠٨ . وكان أمله أن يصبح طبيباً ، ولما كان على وشك التخصص في علم الأحياء أصيب بمرض في عينيه وبعد بضعة شهور فقد بصره تماماً . وبدأ في تعلم قراءة الكتب والنوتة الموسيقية بطريقة « بريل » وبدأ في استعمال الآلة الكاتبة . ولما كان عمره ثمانية عشر عاماً انتهى من كتابة قصة على الآلة الكاتبة ولما استرد بصره قليلاً كان مخطوطها قد ضاع .

وبعد عامين شغيت إحدى عينيه قليلاً وعندما استطاع القراءة بمساعدة عدسة مكبرة ذهب إلى جامعة أكسفورد حيث درس الأدب واللغة عندما أصبحت دراسة العلوم أمراً مستحيلاً نظراً لضعف بصره . وتخرج في عام ١٩١٥ وقضى فترة الحرب العالمية الأولى في أعمال متعددة كقطع الأشجار والعمل في مكتب حكومي والتدريس . وفي عام ١٩١٩ تزوج ماريانز وكانت بلجيكية الأصل حضرت لإنجلترا أثناء الحرب كلاجئة . ثم عمل عضواً في هيئة

تحرير مجلة « اثينا يوم » تحت رئاسة جون ميلدتون موري . وفي هذه الفترة كتب جزءاً كبيراً من الأدب الصحفي لكثير من المجلات .

وعندما تمكن من اقتصاد بعض المال نزع إلى إيطاليا مع زوجته وابنه حيث قضى معظم وقته فيما بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٣٠ . وفي إيطاليا كرس وقته للكتابة . وفيما بين عام ١٩٢٥ وعام ١٩٢٦ قضى وزوجته وقتاً طويلاً في الهند وعند عودتهما اتصلا بفريدا د . ه . لورنس . ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاة د . ه . لورنس عام ١٩٣٠ كان هكسلي وزوجته مع لورنس في إيطاليا وفرنسا .

وفي عام ١٩٣٠ اشترى منزلاً صغيراً في جنوب فرنسا وأصبح ملاذاً لهم طالما كانوا خارج إنجلترا . وفي عام ١٩٣٤ ذهب إلى أمريكا الوسطى والولايات المتحدة وبعد ثلاث سنوات عاد إلى أمريكا . وهناك علم بطريقة تعيد الإبصار للعين ابتكرها الدكتور « بيتس » ، وبعد فترة تدريب على يدى خبراء في هذه الطريقة بدأ التحسن الواضح في قوة الأبصار وبدأ الأمل يحيا في نفسه (أنظر كتابه « فن الإبصار ») وفي كاليفورنيا ساعد في التحضير لكتاب عن مدام كورى ولفيلم سينمائي عن قصة لجين أوستن .

ولنقرأ ما كتبه هكسلي في عام ١٩٥٠ في معرض حديثه عن أهم تجربة مر بها في حياته : « إن أهم حدث في حياتي هو ، بدون نزاع ، بداية ضعف بصرى . وكان لهذه التجربة أثرها في عزلي أيام شبابي واضطرتني ضعف بصرى أن أعيش معتمداً إلى حد كبير على أفكارى الذاتية محصوراً في نطاق تجاربي الشخصية . وفي الشهور الماضية وعن طريق توجيه القوى الواعية في الإنسان تمكن الخبراء من علاج هذه العاهة . وقد أثبتت لي هذه الطريقة أنه يمكن للإنسان من أن يسيطر على ظروفه بدلاً من أن يصبح عبداً لها . »

« ومشكلة الحرية بالمعنى السيكولوجي ، لا بالمعنى السياسي ، هي مشكلة

فنية . فلا يكفي أن يرغب الإنسان في أن يكون سيداً . فالإمام الصحيح بالوسائل التي تمكنه من السيطرة على ما يريد لها ضرورتها القصوى .

ومن مجال إنساني واحد محدد يوحى بالعجز زودنا الدكتور « بيتس » بهذه المعلومات . وقد تطورت طرق وأساليب عديدة في مجالات أخرى للسيطرة على ظروف قاسية ، ويمكن لأي شخص أن يستفيد منها إذا أراد . وكل الأساليب ثانوية على كل حال وتدور حول فن واحد رئيسي . وهذا الفن الرئيسي الذي يعلمنا الحصول على الخلاص من العجز الإنساني الذي يدفعنا إلى الإثارة وحب النفس كثيراً ما كتب عنه ووصفه المتصوفون في كل العصور . وإني أجد نفسي الآن معنياً بمشكلة الخلاص الفردي السيكلوجي .»

من هذه اللوحة القصيرة عن حياة الدوس هسكلي نرى أن أهم تجربة مر بها في حياته هي فقدته لبصره لمدة عام ونصف عام وضعف بصره المستمر وقد ساعدته هذه التجربة على التأمل والعزلة وإمعان الفكر فكان يمضي الأيام الكثيرة وحيداً في حجرة الظلمة . وتظهر نتائج الإستبطان بوضوح في كتبه التي لا تخلو من نغمة حزينة وتحسر وحقد على ما كان يطلق عليهم « قطيع الذئاب » . وقد دفعه ظلام الدنيا من حوله إلى أمعان التفكير فيما حوله والإنعكاف على ذاته متفحصاً . ويقول : لقد كنت أشعر دائماً بالمل وإجهاد ، الإجهاد الذهني والجسماني اللذين يجلبهما ألم العين ومع ذلك كنت أحمد الله على أنني أرى بهذه الصورة . ، وإن كان ضعف بصره قد خلف في نفسه جرحاً عميقاً إلا أنه تغلب على هذا العجز . « فالإيمان الصادق ، ، كما يقول : يجعل الإنسان يحرك الجبال ، أما الإيمان السلبي فيمنعه من رفع عود من القش . ، ويظهر في قصائده الأولى دقة الوصف الحسي الذي يعتمد على الأصوات واللمس والشم دون حاسة البصر .

وبرهن هسكلي إلى هذه التجربة في جميع قصصه بلا إستثناء ، فأبطاله

يفاسون من عاهات ممائلة وأعمارهم تتزايد على مر السنين لكي تقابل سن هكسلي أثناء كتابه القصة ، وجميعهم من خريجي جامعة أكسفورد وكلهم طوال القامة مثله (يعتبر هكسلي أطول كاتب في القرن العشرين) ومن النوع الانطوائى الخجول ولم يلتحق واحد منهم بالخدمة العسكرية .

ففى أول مجموعة قصص قصيرة له لايلع بطل القصة الاولى فى الرياضة ولم يكن بطال بل كان مسالما ورفض التطوع فى الجيش .

وبطل القصة الثانية «جاي» كان أحد بابسيقان هزيله وفقد زميله «جورج» إحدى ساقه . وفى قصته (تلك الاوراق الذابلة) كان شيليفر مصاباً بجرح عميق فى ركبته جعله غير لائق للخدمة العسكرية وفى شعره يعتمد على حواسه ما عدا حاسة البصر . وفى (تقابل الالخان) كان بطل القصة فيليب كوارلز أعرجا يجب العزلة والتأمل . حتى فى (عالم جديد شجاع) نلاحظ أن برنارد ماركس يقاسى من شعور بالنقص والخجل لأن نسبة الكحول فى مجرى دمه أثناء عملية التفريخ ، زادت عن النسبة المقررة . ونصل إلى « ضرير فى غزه » ويظهر لنا هكسلي بنفسه فى شخصية « انتونى بيترز » وهو يتحدث مع طبيب :

- « هل تقاسى كثير آ من الإمساك ؟ »
- « لا ، أجب انتونى وهو يتسم . . . ليس كثير آ . »
- « تعنى ليس بشدة » قال الطبيب . « هل عندك أكرىما ؟ »
- « من آن لآخر . »
- « وقشور فى فروة الرأس . وهز الدكتور ميلر رأسه وكأنه يجيب على سؤاله . « ويصيبك الصداع ، أليس كذلك ؟ »
- « وكان على انتونى أن يعترف بهذا .
- « بالطبع تصلب فى الرقبة وإصابات باللو مباجو . أعرف ذلك .
- أعرف ذلك . وبعد بضع سنوات ستصاب بعرق النسا أو تصلب الشرايين . »

سكت الطبيب لبرهة ونظر متفحصا في وجهه . « تمام ، هذا الوجه الشاحب » .
وهز رأسه . « وإحساسك بالسخرية والشك . أنت سلبى حقاً . كل ما تفكر
فيه سلبى . » وضحك أنتونى . ولكنه ضحك لكى يخفى شعوره بعدم
الارتياح - « لا تظن أنى ألقى اللوم عليك بأى حال من الأحوال . » ومد
الطبيب يده وربت بها على كتف أنتونى بعطف . « فكلنا ما نحن عليه .
وعندما نرغب فى تغيير أنفسنا إلى ما يجب علينا أن نكون ، فليس الأمر
سهلاً . لا ، إن الأمر ليس سهلاً يا أنتونى بيشز . وكيف تستطيع التفكير إلا
بطريقة سلبية وعندك تسمم مزمن فى الإمعاء . لقد ظل معك منذ ولادتك ، على
ما أعتقد . لقد ورثته . وفى نفس الوقت هذا الإحناء . تلقى بنفسك هكذا على
حصانك ، إن هذا لفظيع . تضغط هكذا على عمودك الفقرى . . . يكاد
الإنسان يسمع صوت الفقرات وهى تسحق بعضها البعض . وعندما يكون
العمود الفقرى على هذه الحالة ، ماذا يحدث لباقي الآلة ؟ إن التفكير فى هذا
الأمر مخيف . »

وفى قصته « لا بد للزمن من وقفه » فقد « سياستيان » إحدى ذراعيه .
ولا يقتصر التشابه عند هذا الحد بل يتعداه إلى أمراض أخرى تصاب بها
أبطال قصصه كالمرارة والإمساك وتقوس الظهر واضطرابات المعدة وطول
النظر أو قصره ولا تخلو قصة من قصصه من الإشارة إلى هذه الأمراض
وما ينتج عنها من أمراض نفسية . وهذا هو منهاج هكسلى فى دراساته فهو
دائماً يشير إلى العلاقة الوثيقة بين الجسم والعقل : بين المرض ونظره الإنسان
إلى الكون من حوله .

وكنتيجة لضعف البصر وعدم القدرة على الاختلاط بالآخرين كان
هكسلى يقاسى من خجل شديد وأصبح يعيش فى عالمه الذهنى الخاص به
ويقول « نحن دائماً نخضع لما نعمل فيه ولأن أخضع للتأمل الذهنى خير ألى
من الخضوع للعواطف ؛ ولأن استعمل رוחى فى المعرفة أفضل من استعمالها فى

الإحساس . ، وكان احساسه بضرورة إظهار عواطفه للناس كاستعريض جسده عاريا لهم . ويظهر عدم ميله للتعزية النفسية والعاطفية في قصة الأولى مثل « أنتيك هاى ، و « كروم يلو ، . وفي خطاب لأحد محررى المجلات الأدبية فى أمريكا كتب يقول : « إنى لا أجد غضاضة فى التحدث بسخرية عندما أكتب عن أشخاص آخرين وخاصة الشخصوخ الخيالية فى قصصى . أما فيما يختص بى فإنى لا أحتمل إلا التكتيم ، .

ويقول هكسلى ان السبب فى أعراضه عن الحفلات والسهرات والاجتماعات هو أنه لا يلبع فيها ولا يتألق ، ولكن صديقه « أوزبرت سيتويل ، يخالفه هذا رأى : « كان فى ذلك الوقت يبلغ العام الثالث والعشرين من عمره ولو أنه كان أحيانا يؤثر الصمت لفترات طويلة . وكان ضليعا فى النظريات العلمية الحديثة والسياسية والفن والأدب وعلم النفس ، وكان أهلا لأن يعالج الأفكار ويلعب بها وكنت أتمتع بصحبته ، ولكنه سرعانى يؤثر الصمت ويشرد فى نوبة من التأمل العميق ، . وهكذا يرسم هكسلى شخوصه فى قصصه : شخوص تؤثر العزلة والصمت والتأمل والقراءة واللعب بالأفكار والكلمات وتسجيلها وفحصها ، شخوص لا تتفعل ولا تؤثر فيها العواطف الإنسانية الدافئة كالحب والشفقة والعطف ولكنهم كهكسلى ذهنيون يعيشون فى عالمهم الخاص بهم .

٢ - اليوميات :

ولنتساءل ، إذا كان الأديب خجولا منظويا ولا يريد الإفصاح عن دخيلة نفسه فان أفضل وسيلة للتعبير عن ذاته هى « الجورنال ، أو اليوميات أو الاعترافات . ونلاحظ شيئا هاما فى جميع قصص هكسلى ، وهو أن كل شخوصه الرئيسية سواء فى القصص القصيرة أو فى القصص الطويلة تحتفظ بيوميات . وربما لا نكون مبالغين إذا قلنا أن أروع ما كتبه هى تلك

الأجزاء في قصصه التي يعبر فيها البطل عن إحساساته العميقة وآرائه وفلسفته في الحياة وشعوره الصادر من تجاربه الذاتية واحتكاكه بالآخرين . كما يناقش فيها البطل ، ومعظم أبطاله من الأدباء ، مشا كل نقدية ويستعرض أساليب مختلفة في تكنيك كتابه القصة .

ولدينا في قصصه تلك الفصول الرائعة في « ضرير في غرة » ، وهي مقتطفات طويلة من يوميات أنتوني بيفز . ومفكرة فيليب كواراز في « تقابل الألمان » ، ويوميات شيليفر في « تلك الأوراق الذابلة » ، التي تكون في مجموعها تلك القصة ، وكذلك ما أسماه سباستيان في « لا بد للزمن من وقفه » ، بملاحظات عابرة . وبالإضافة إلى هذه اليوميات فهناك عدد كبير من المذكرات و « الأفكار » ، في قصصه القصيرة .

وفي هذه اليوميات يكتب أبطال هكسلي عن إحساساتهم بعمق وفهم وإدراك ، ولا نجد في أسلوبها تلك السخرية التي تتصف بها قصصه لأنها تعبير صادق عن نفسه وعن فلسفته في الحياة . وكان هكسلي يسجل عادة هذه الملاحظات في يوميات ولكنه لم يسجلها بانتظام ومن المؤكد أنه كان يستعين بما يسجله فيها عند كتابه قصصه ومقالاته . ولا بد أن ننظر إلى هذه الأجزاء التي تحتوى على يومياته نظرة خاصة ويجب معالجتها بطريقة مستقلة . وما يسجله هكسلي عادة في هذه اليوميات هو ما يعن له من أفكار عابرة أو اهتماماته الوقتية بشيء ما . ومعظم ما فيها من مادة بدور حول موضوع واحد بالرغم من التباين والاختلاف فيها فهي تدور حول موضوع وحدة الـكون ومحاولة التأمل في النفس بقصد اكتشاف جوهرها . ويميزها طريقة السؤال والجواب وخاصة في « ضرير في غرة » ، وفي « لا بد للزمن من وقفه » ، وكان هكسلي يستجوب نفسه أو يحقق معها .

وفي قصته « كروم يلو » ، « أنتيك هاي » ، لا يستعمل هكسلي طريقة اليوميات ولكنه يقطع السرد القصصى ويقص علينا قصة أخرى قصيرة

يضمنها النص الأصلي . ونجد قصة « القزم » ، في (كروم يلو) ويظهر فيها بوضوح شعور هكسلي بالحنج والجزلة وخوفه من « قطيع الذئاب » ، والعمالة أو « الخراف الناطحة » . ومن السخرية الظاهرة اسم القزم نفسه فهو يدعى « هرقل » ، ولكنّه ، لأنه قزم ، محروم من ممارسة نشاط العمالة . وفي « أنليك هاى » ، يحلّ إنسان مشوه محل القزم ونجد مسرحية قصيرة من فصل واحد في القصة والإنسان المشوه يريد أن يحب ، يريد أن يمارس نشاط أقرانه ومعاصريه . ويمد المشوه يده إلى أعلى ويتسلق كرسيًا محاولًا الوصول إلى مثله الأعلى ولكنّه يسقط في بالوعة مياه قنطرة قبل أن تصل أطراف أصابعه إلى ما يبتغى . وشعور كل من القزم والمشوه يمثل لنا شعور هكسلي في أيام شبابه عندما كان يقاسى من الاحباط وضعف البصر والحنج .

ولكن هكسلي سرعان ما يتحول من التحسر على نفسه والتفوق إلى الهجوم . والهجوم في علم النفس وسيلة من وسائل الدفاع عند الاحباط . فالقزم له عقل جبار ويستطيع أن يتفوق به على العمالة . ويبدأ هكسلي في اتخاذ موقف إيجابى من العمالة فيتمكّن ويسخر منهم ويبدأ أبطال قصصه الذين يدنونون مذكراتهم في التكشف لنا ويصبحون عقلاء في عالم خاص بالمجانين ، عمالة ذهنيون في عالم يعج بالافزام الجملة ، رواقيون في عالم الشهوات والذات .

وأهم هذه اليوميات يوميات أنتونى في « ضرير في غزة » ، وأول ما نقرأ فيها :

« كلمات سبع تلخص لنا كل ترجمة ذاتية . « انى أرى الأفضل واستصوبه . ولكنى أتبع الأردا . « ومثل أترابى فى الإنسانية . أعرف ما يجب على أن أفعله ولكنى أستمّر فى عمل ما يجب على أن أتجنبه » .

وأخّر ما كتب فيها هو تسجيله لتجربة صوفية مر بها وانتهى على أثرها

ذلك الشعور الكثيب بعجز الإنسان عن إكمال شخصيته وإفادها من برائن الازدواج .

وبعد « ضرير في غزة » نجد أن تأملات سباستيان في « لا بد للزمن من وقفة » يميزها الطابع الصوفي والغموض والخاتمة ، كما يقول هكسلي ، هي مقتطفات من يوميات بطل القصة يصحبها تعليق عنها . والحقيقة هي أن هذه التأملات نشرت قبل ظهور القصة كمقالات متفرقة في أعداد مختلفة من مجلة « فلسفة الفيدا والعالم الغربي » وهي مجلة صوفية يغلب عليها الطابع الهندي وتصدرها « جمعية الفيدا » في جنوب كاليفورنيا وكان هكسلي أحد أعضاء هيئة تحريرها .

وأبرز ما في هذه اليوميات . رغم نجاح هكسلي في الحبكة القصصية وفي دراسة المشكلة الفلسفية والنقدية والاجتماعية ، فشله في حل مشكلته الخاصة ، تلك المشكلة التي ألقت ظلالاً من الكتابة على قسما وجوه أبطاله وكشفت عن أفكاره الذاتية التي ضمنها مذكرات أبطاله والتي تبدو أقرب ما يكون إلى ما يسمى بأدب الاعترافات . والغريب أن معظمها لا يحمل أسماء أو تواريخ أو وقائع ولا تتضمن إلا سلسلة من الملاحظات العابرة والتأملات فضلا عن بعض الحكم وأبيات من الشعر ، غالباً من شكسبير ، وتعليق مستفيض عليها . ونلاحظ أن المذكرات مكتوبة بطريقة لا أثر فيها للترابط أو التنسيق أو الترتيب الزمني ، فقد جاءت له في شكل شذرات متناثرة تبدو - لأول وهلة - كأنه ليس هناك خيط واحد يربطها أو يؤلف بينها . ومعظم الجمل مبتورة توحى بأن كاتبها لا يريد أن يظهر الحقيقة كلها ، أو ربما لأنها تعبر عن تجربة صوفية لا يمكن الإفصاح عنها تماماً ، ففيها يكثر التلميح والإشارة والرمز . وإذا كان أسلوب قصصه سهلاً ميسوراً فلا بد لنا من وقفة عند بعض عبارات مذكرات أبطاله فهي تخضع للعديد من التفسيرات والتأويلات شأنها في ذلك شأن كتابات المتصوفين .

ففي « تلك الأوراق الذابلة » يقول شيليفر في مذكراته عن خطاب أرسله لسيده : « لقد كانت رسالة موجهة إلى الله وليس إلى سيده ، خطاب شرح واعتذار موجه للعالم . » وفي « ضريح في غزة » يكتب أنتوني .

« هذه اليوميات خطوة أولى . معرفة النفس خطوة ضرورية مبدئية لتغيير النفس . إن ما يقلقني هو اللامبالاة . فأنا لا أعيا بالناس . أو بالأحرى . لا أريدهم . فأنني أنجنب بحرص كل المناسبات التي تجعلني أهتم بهم . جزء ضروري من العلاج أن تقبل كل المناسبات المزعجة ما استطعت ، أن تتخلي عن طريقك لتخلقها . »

وتزخر اليوميات بالعديد من زوايا شخصيته وباللمسات والإشارات التي يمكن أن ترشدنا إلى جوانب مجهولة أو تقودنا إلى عمر تنفذ منه إلى فهم حقيقته التي استطاع أن يصل إليها بعد جهد شاق . ولا يقتصر اهتمامنا بقصصه لاحتوائها على هذه الأشتات من شخصيته بل يتعداها إلى كتب رحلاته ، فكتابه « بيلاط المازح » له عنوان آخر هو « مدونة رحلة » ويصف كتابه « على الطريق » بأنه « مذكرات ومقالات سائح » وكتابه « فيما وراء خليج المكسيك » على أنه « يوميات رحلة » . وسنعالج كتب رحلاته على أنها وسيلة للهروب من الواقع أو محاولة للسعي المتواصل وراء هدف .

٣ - السفر والهروب

« وإذا كانت الحال هكذا ، فما السبيل ؟ يجب على كل شخص عاقل أن يحاول بقدر ما استطاع أن يهرب . . . ولكن إلى أين ؟ إلى الفكر المجرد والحياة الذاتية ، أو « وهذا هو القرار الذي وصل إليه فيلسوفنا في أواخر حياته » إلى التأمل صادق في الذات العليا . »

مباحث ومتنوعات سنة ١٩٥٠

هذا هو ما كتبه ألدوس هكسلي في عام ١٩٥٠ في معرض دراسته عن

الفيلسوف الفرنسي (مين دي بيران) ١٧٦٦ - ١٨٢٤ الذى اعتنق فى بدء حياته الفلسفية المذهب الحسى تم نبذه إلى المذهب العقلى وأخيراً ترك المذهبين واتجه للتصوف ، ويخيل إلينا أن هكسلى كان يكتب عن نفسه أو يلخص لنا تطوره الروحى . فقد طوف هكسلى بأرجاء عديدة من العالم كما بحث داخل نفسه ذاتها وعاد من طوافه فى العالمين شخصا مختلفا تماما عن الرحالة الخجول الذى قابلناه فى أول كتاب رحلات له وفى هذه الفترة اتخذ هكسلى لنفسه أفعى عديدة وانتحل شخصيات كثيرة متلوثة متقلبة يمكن حصرها على التوالى فى شخصية « المتسائل الحائر » ثم « عابد ملذات الحياة » ثم « طالب الخلاص » ، وأخيراً شخصية « المتصوف » .

ولدينا فى كتب رحلاته تسجيل متصل لما اعترى شخصيته من تغير وتطور ، فلقد كان السفر عنده بمثابة سعى متواصل للوصول إلى شىء لا يدركه كنهه ، فعاش فى أوروبا وخاصة فى فرنسا وإيطاليا فيما بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٣٠ وقام فى هذه الفترة بزيارات لهولاندا وبلجيكا وضمن حصيلة تجارية فى كتابه « على الطريق » ، ١٩٢٥ ، وزار الهند مع زوجته فيما بين عامى ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ ونجد مدونة هذه الرحلة فى كتابه « بيلاط المازح » ، ١٩٢٦ . وفى عام ١٩٣٤ سافر إلى أمريكا الوسطى والولايات المتحدة ونشر كتابه « فيما وراء خليج المكسيك » ، ١٩٣٤ . ثم قام برحلة إلى البرازيل فى عام ١٩٥٨ وهو « يعمل الآن فى قصة شبيهة بقصته « عالم جديد شعجاع » ، وفيها يبين كيف يحاول راجاهندى مع رئيس وزراء من الغرب أن يبنى مجتمعاً إنسانياً على جزيرة وهمية بين سيلان وسومطرة . . وكان هذا الكتاب هو آخر قصة له وأطلق عليها « الطبيعة » ، وظهر عام ١٩٦٢ .

والرحلة بالنسبة لهكسلى رمز للشخص القلق الضجر ، وليس السفر رذيلة جسدية كما يدعى بل رذيلة ذهنية ويعلل كثرة سفره وترحاله بقوله « نحن نقرأ ونسافر كثيراً لا لتوسع مداركنا ونغذى عقولنا ، ولكن لى
(١٥٢ - أعلام القصة)

نفساها بسهولة ، فنحن نحب القراءة والسفر لأنهما من أجل ما يعوضنا عن التفكير ، . ونسأل : عن التفكير في أى شيء ؟ عن التفكير في الضجر والعزلة والكتابة . فكتابه « على الطريق » سجل لرحالة وباحث في وقت واحد . ويظهر في هذا الكتاب ميله إلى طلب العلم والمعرفة والحقيقة ولكنه لم يجد ما كان يبحث عنه في أوروبا فاتجه إلى الشرق بروحانياته ، اتجه إلى الهند وبورما والملايو ثم إلى اليابان وأمريكا في كتابه « بيلاط المازح » . وفي الشرق لم يجد إلا إجابة سطحية عن سؤال بيلاط « ما هي الحقيقة » ، لأن الحقيقة التي وصل إليها لم تكن كافية . فالروحانيات سائدة في الشرق . ويقول هكسلي « لو كنت مليونيرا هندية لتركت ثروتي لتمويل بعثة لنشر الإلحاد » . والفلسفة الهندية التي تقول إن هذا العالم وهم وأن مهمة الإنسان في الحياة هي الإفلات من عجلة تناسخ الأرواح والتجسيد ليصل إلى النيرفانا أو الفناء ، وأن الروح هي كل شيء وأن أسمی القيم هي القيم الروحية لم تستول على تفكيره في ذلك الوقت . أما بالنسبة لمادية الغرب والانحلال الخلقي والاجتماعي فيه ، فهذه الفلسفة هي الأخرى لم ترق له . وهكذا يرجع من طوافه بالشرق أكثر تعاسة ، ويلخص انطباعاته فيما يلي :

أولا : لقد اكتسبت اعتقادين هامين جديدين . لا بد للعالم من أن يحتوي على عديد من الأنواع . وأن القيم الروحية المتفق عليها صحيحة ويجب التمسك بها .

ثانياً : إذا كان السفر يكسبنا اعتقاداً بالتنوع فهو يكسبنا اعتقاداً قوياً بمائلا بوحدة البشرية . فهناك تنوع لا نهاية له في الأديان وفي القوانين الخلقية ، ولكل منها الحق في أن يمضي في طريقة . ولكن الأساس في التنوع واحد .

ثالثاً - إن الناس ، مهما اختلفت معتقداتهم أو عاداتهم أو طرق

حياتهم ، لديهم إحساس بالقيم . والقيم بشكل عام واحدة في كل مكان وفي كل أنواع المجتمعات لأن شعورنا بها بديهي .

وفي كتابه « فيما وراء خليج المكسيك » ، تبدأ أفكاره في التبلور والنضوج وتتخذ لنفسها طريقاً خاصاً يختلف اختلافاً كبيراً عما ألفناه من السأخر الضجر .

ومعظم آرائه في قصته « ضرير في غزة » ، ١٩٣٦ مستوحاه من تجاربه في كتابه « فيما وراء خليج المكسيك » .

والسفر أو الطواف قد يعنى الهروب أو الفرار . أليس الأدب والتخييل والشعر نوعاً من الهروب ؟ ، هروب من المتغير إلى الأزلى ، من الزمان إلى اللازمان ، من المكان إلى اللامكان ، من عالم الواقع إلى عالم المثل ، من التعدد إلى الوحدة ، من الفوضى إلى النظام ومن المحدود إلى اللامحدود . والسؤال الذى يلح علينا دائماً هو : مم نهرب وإلى أين المفر ؟ وهنا يقدم لنا هكسلى فى أعماله مجتمعة صورة دقيقة للتطور الذى طرأ على أفكاره . ففى بادىء الأمر قد يجد الضجر الذى يقاسى من الإحباط حرته وجميل أن يكون الإنسان حراً طليقاً . ولكن هكسلى يقول « ولكنى اعترف أنى أحياناً أتخسر لأنى لم أقيد نفسى بالسلاسل ولكن الإنسان لا يستطيع أن يكون نقيضين فى وقت واحد » . ولهذا يقول بريان لانتونى (هكسلى) فى « ضرير فى غزة » : « إذا أردت أن تكون حراً فيجب أن تكون سجيناً فهذا هو شرط من شروط الحرية - الحرية الحقيقية » .

ويعبر هكسلى عن الهروب بطرق مختلفة فى قصائده الأولى ، إما كالسمكة فى أعماق البحار فى عالم مظلم غريب ، أو كراهب فى مكان ناء ، أو الهروب إلى داخل النفس عن طريق الإستبطان والانطواء أو إلى أعلى عن طريق التسامى . ولكن واحسرتاه فالنفس راغبة ولكن الجسد ضعيف . فالسفر والهروب صنوان ، السفر هروب من المكان والفرار عن

طريق الفكر هروب من الزمان والهروب في كلتا الحالتين هروب من النفس ذاتها وإينما يسافر الإنسان فإنه يستصحب نفسه معه، وإذا تمكن من نسيانها لفترات قصيرة فهو يصحو ليجدها . ويعبر هكسلى عن الهروب من المكان في كتب رحلاته ، وعن الهروب من الزمان في مذكرات ويوميات أبطاله في قصصه . وتعطيه مذكرات السائح الشعور بالحركة والتنقل والعمل وتعيينه يوميات أبطاله على نسيان التفكير فيما حوله وعلى التعبير عما يجيش في صدره من انفعالات وما يدور في عقله من أفكار وهي بمثابة صمام الأمن لنفسه الحزينة النائرة . وهنا نسأل : هل كان هكسلى يكتب عن نفسه عندما قال عن لورنس .

« لقد كان إحساس لورنس بالعزلة هو الذى دفعه للتجول حول الأرض وكانت رحلاته هروباً وتنقيباً في آن واحد :

« كان يبحث عن مجتمع يستطيع أن ينتمى إليه . عن عالم لا يكون الزمان فيه ذاتياً ولا تكون فيه المعرفة الواعية قد أفسدت الحياة ، تنقيب وفي الوقت ذاته ، هروب من الشقاء والشورور في المجتمع الذى ولد فيه ، ذلك المجتمع الذى كان يشعر تجاهه بالمسئولية رغم إحساسه العميق بضرورة انفصال الفنان عنه ، ولكن بحثه كان غير مثمر كما كان هروبه لا طائل تحته ، وفي حالة من اليأس ألقى بنفسه في أعماق اللغز المحيط به ، إلى الليل الأسود لتلك الغيرية التى تعتبر التجربة الجنسية جوهرها ورمزها . ولقد أدى انعزال لورنس للنفس إلى طلبه العزلة جسدياً عن البشرية ولقد كان لهذه العزلة الجسدية رد فعل في أفكاره .

يبدو وكأنها حالة واحدة مع فارق بسيط . فلقد ألقى لورنس بنفسه في ظلام التجربة الجنسية ليصل إلى غايته وألقى هكسلى بنفسه في أحضان التجربة الصوفية إلى جوهرها الشعور بوحدة الكون . كان لورنس يبحث عن آلهة الظلام إلى ما دون المستوى الإنسانى ، إلى الغريزة ، وكان هكسلى

يبحث عن آلهة النور إلى ما فوق المستوى الإنساني ، إلى الروح عن طريق الحدس . فطريق الأول ارتداد إلى الحياة الغريزية ، وطريق الثاني تسامى إلى الاكتمال الروحي ، وقد أشار هكسلي إلى هذه الرحلة الشاقة مبكراً في كتابه « دراسات قيمة » ، عام ١٩٢٧ :

« إن مثلنا الأعلى يقع على تماس دائرة . ويحاول الإنسان جاهداً أن يصل إليه ولكن قوة الجذب في العالم الذي نعيش فيه تحول دون ذلك . ومن المستحيل على الإنسان أن يتحرك في اتجاه هذا المماس ليصل إلى غايته المنشودة والمحصلة الناتجة من رغبته الدافعة المماسية والقوى التي تؤثر عليه ترسم لنا الطريق الحقيقي لحياته الزمنية » .

ويتضح التشبيه إذا فرضنا أن الكرة الأرضية تسير في خط مستقيم في الفضاء إذا تركت حرة الإرادة . ولكنها توجد بجوار الشمس ولهذا تتخذ لنفسها مداراً بيضاوياً . فإذا ما فقدت الشمس فجأة قوة جاذبيتها فستطلق الأرض في الفضاء في خط مستقيم مماسي للمنحنى الذي كانت تسير فيه وهي تحت تأثير جاذبية الشمس . وليست الأرض جسماً عاقلاً وإلا لاستطعنا أن نقول إنها تحاول أن تسير في خط مستقيم ، وطريقها الحالي هو المحصلة الناتجة من رغبتها المماسية وقوة جذب الشمس لها . ويقصد هكسلي أن الإنسان يريد دائماً أن يتسامى وأن تشف روحه ولكنها مقيدة بجبل سرى إلى الجسد الذي يجذبها إليه فالنفس راغبة ووثابة ولكن الجسد ضعيف . فالهروب إذن بمعناه الروحي هروب من الجسد وهو غرزي في الإنسان وفي الترحال والسفر استطاع هكسلي أن يجد نفسه وينساها . ونقرأ في قصته « تلك الأوراق الذابلة » ، من مذكرات شيليفر :

« الهروب من المكان . . ليس هروباً بمعنى الكلمة والهروب من الزمان ليس كافياً . والهروب إلى الخيال المحض لا يمنع الواقع من الاستمرار ، فما هو إلا تجاهل للواقع . وأخيراً فهناك هؤلاء الناس ، وهم أشجع من الهاربين ،

الذين يلقون بأنفسهم في خضم الحياة الواقعية المعاصرة حولهم ، وعزائهم أنهم يجدون وسط قذارتها وغبائها وبشاعتها ، دلائل على وجود العطف والإحسان والشفقة وما شابه ذلك .

وهكذا وبعد تفكير عميق وسعى متواصل استطاع هكسلي أن يعود إلى الواقع الذى كان يهرب منه ، إلى واقع ذاته وتمكن من الهروب من المتناهة النفسية التى يمكن أن تضل النفس فيها طريقها . لقد تحقق من أن المطلوب حقيقة ، ليس هروباً جسدياً أو انطوائية بعيدة عن الواقع ، بل القدرة على القيام بنشاط ضرورى بروح طيبة دون ارتباط ، بروح تتجلى فيها فناء الذات . وأصبح الاكتمال والاستنارة لا يأتیان إلا عن طريق ترويض النفس ذاتها وهذه تجربة لا بد لكل إنسان من ممارستها بنفسه . فالاستنارة ، كما يقول « لا تأتى إلا للذين تعلموا كيفية تقبل الواقع والعمل على تغيير شكله ، والكاتب الذى يكتب مثل هذا الكلام فى نهاية رحلة شاقة قد وجد نفسه وعرفها .

٤ - المسائل الحائرة

وقد أحطنا حتى الآن بأطراف من حياة هكسلي وتطوره ذهنى والروحي وسنبداً باستعراض أعماله مجتمعة فى ضوء هذه المعلومات عنه . وإذا نظرنا إلى حياة هكسلي كما تعكسها كتبه لوجدنا أن من أهم أسباب الإحباط فى حياته المبكرة عدم استطاعته الوصول إلى ما يصبو إليه . فقد كانت مثله العليا وأهدافه على مستوى عال ولم يصل إليها لأنه كان دائماً يسخر منها ويتمك عليها . ولكنها كانت هناك دائماً تورقه وتلج عليه . وأدى هذا الإحباط إلى نوع من اليأس دفعه إلى تدنيس كل ما هو مقدس والسخرية من كل ما هو متعارف عليه . فهاجم التقاليد والقيم والعلم والدين والعادات واستطاع فى الفترة الأولى من حياته أن يملأ هذا الفراغ الروحي بأشياء شتى . ويمكن

حصر هذا الصراع النفسى فى صراع بين المثل العليا والقيم من جهة والحقائق العلمية من جهة أخرى ، وصراع آخر بين الجسد والروح ، بين القلب والعقل ، وظلت المعركة لفترة طويلة لأن المتسائل الحائر ، كان يقاسى مما يطلق عليه هكسلى ، فقر دم فى الإرادة ، وكانت أسباب هذا الإحباط كثيرة منها الفلسفات المتعارضة سواء فى العلم أو فى الأخلاق أو فى الدين . ثانياً ، نزعتة الانطوائية ، ثالثاً ، الصدام بين النزعة الانطوائية وبين النزعات الفردية الانبساطية الأخرى فى مجتمعه ، رابعاً ، ضعف بصره وإمكاناته الجسمية وأخيراً نظراته الشائبة لما حوله ولنفسه . وباختصار يمكن القول بأنه كان هناك صراع بين ما كان يدركه بعقله الواعى وبين ما كان يحس به بعمق فى قرارة نفسه .

وكانت نظراته الأولى للعالم من حوله نظرة متشعبة متعددة لأنه كان يشعر بالتعدد والازدواج فقد نشأ فى عائلة برز أفرادها فى الحقلين الأدبى والعلمى ويقول :

« فعندما ننشأ منذ الطفولة ونشب على أن نفكر بطريقة مادية فى مجموعة من الظواهر وبطريقة مثالية أو حتى صوفية فى البعض الآخر ، نجد أنفسنا وبطريقة طبيعية ، نختار اتجاهاً ذهنياً معيناً فى بعض الأحيان واتجاهاً آخر مخالفاً إن لم يكن عكس الأول أحياناً أخرى . فالتذبذب يكاد يفرض علينا فرضاً . ولهذا نجد أنفسنا نحيا حياتنا الذهنية بدون استقرار ، وكانت مشكلة الازدواج هذه من أهم المشاكل التى اعترضت حياته فى بادىء الأمر . ويظهر الازدواج فى أول قصة قصيرة له وكانت طريقته فى النظر إلى الأشياء والتجارب من زوايا مختلفة هى التى أعطته ذلك السلاح الرهيب الذى يستطيع به أن يتهكم ويسخر من العالم حوله . فقد كانت طريقة المتسائل الحائر ، هى تمييز العامة ، وضع مثلاً علم وظائف الأعضاء بجوار التصوف (لقد كانت لحظات التجلى عند مدام د جيون) تأتى إليها بشكل واضح وبكثرة

في الشهر الرابع من الحمل) . ضع مثلاً علم الأصوات بجوار موسيقى باخ (دعوني أشير إلى طريقتي في قصتي (تقابل الألحان) عندما أشرت إلى وصف الموسيقى من الناحية العلمية والجمالية) ، ضع الكيمياء بجوار الروح (فغدونا الصماء تفرز مزاجنا وطموحنا وفلسفتنا في الحياة) وهذه القائمة التي تحوى المتناقضات يمكن إطالتها إلى ما لا نهاية .

ولقد كان « المتسائل الحائر » مغرماً بدراسة الظواهر المختلفة المتقاربة في وقت واحد، ولكن إذا نظرنا إلى الحقيقة بهذه الطريقة فسيتبدو شاذة للغاية وهذا هو ما أراده المتسائل الحائر للحقيقة أن تبدو . ونقرأ في « تقابل الألحان » ١٩٢٨ من مذكرات فيليب كوارلز :

« تأمل موسيقى بيتهوفن . التغييرات في الأمزجة والانتقالات المفاجئة ، (وقار يتبعه مزاج ... وكوميديا تشير فجأة إلى المأسى في حركة «الاسكروز») وأكثر ما يشير الاهتمام هو التغيير في اللحن ، وليس هذا من نغم إلى نغم ، بل من مزاج إلى مزاج . فتقدم لنا فكرة ، ثم تتطور وتغير شكلها وتشوه حتى تصبح مختلفة عن الفكرة الأولى ولو أنها لا تزال كما هي إلى حد ما ... ضع هذا في قصة . كيف ؟ الانتقالات الفجائية سهلة للغاية . كل ما تتطلبه هو عدد كاف من الشخصيات وحبكات متوازية تقابل الواحدة الأخرى . فبينما يقتل « جونز » زوجته نرى « سميث » يدفع بعربة الأطفال في الحديقة . حاول أن تتعاقب الأفكار . هذا يثير الاهتمام ، ولكن الألحان والتغييرات أصعب . فالقصص يلحن عن طريق ازدواج المواقف والشخصيات وخلطها فهو يعطينا صور شخص عديده تقع في الغرام ، أو تموت ، أو تصلى ، بطرق مختلفة — شخص متشابهة تحمل نفس المشكلة . أو بالعكس ، شخص متشابهة تجابه مواقف مختلفة . وبهذه الطريقة يمكنك أن تلحن عن طريق الأوجه المختلفة لفكرتك ، وتكتب عن التغييرات لأي عدم

من الأمزجة . وطريقة أخرى : يستطيع القصاص أن ينظر إلى الأشياء بعين الأزل وينتقى ببساطة حوادث قصته في أطوارها المختلفة - العاطفية ، العلمية ، الاقتصادية ، الدينية ، الميتافيزيقية ، إلخ . وينتقل من واحدة لأخرى - من الناحية الجمالية للأشياء مثلا إلى الناحية الفيزيوكيميائية . من الناحية الدينية إلى الناحية الفسيولوجية أو المالية . ولكن ربما كان في هذا نوعان من السيطرة الاستبدادية لقدرة الكاتب .

وقد فرض هكسلي على أعماله في تلك الفترة ما أسماه « الفوضى المنظمة » أو « البعثرة المنهجية » . وبهذا كان يذكي نار الانفصال والازدواج والحيرة في نفسه . فإذا ما تحملت الشخص والحوادث هكذا إلى عناصرها الذرية والأولية فإنها تخبر من الوجود كـ شخص آدمية متكاملة وتصبح سلسلة من الحالات المتنافرة . ويقول هكسلي : « إن مؤلفك العظيم يتسلط عليه شيطان لا يستطيع الفنان السيطرة عليه . وإذا أراد الشيطان أن يظهر فسيظهر مهما كان احتجاج عقلك الواعي الأرستقراطي الذي يسكن معه . . . إلى أكتب ما أعرف أنه عبث » .

ويظهر عدم إيمانه بهذه الطريقة التي أطلق عليها « الطريقة المجرية » في قصته « تلك الأوراق الذابلة » ، عندما يستعرض شيليفر يده من زوايا مختلفة وينتهي به الأمر إلى أن يقول « فربما كل شيء يتوقف في النهاية على العقل ، على الروح ، أما الباقي فمجرد وهم أو خيال ! صور خادعة . » وظل هكسلي ، بالرغم من احتجاج عقله الواعي ، يعيش في حالة من « المعاشية العدائية » ، وأعتقد أن أحسن ما يلخص لنا هذا الازدواج في شخصيته فقرة من إحدى رسائل د . هـ ، لورنس يقول فيها : « إن لكل إنسان أكثر من ذات واحدة وإن « الدوس » الذي يكتب هذه القصص ما هو إلا « الدوس » واحد صغير بين آخرين ، أطيّب منه ، لا يكتسبون القصص » ، وربما كان الازدواج

في شخصية هكسلي محاولة من جانب الأديب للتعرف على ذاته الأصلية ، محاولة للتوفيق بين دكتور جيكل ومستر هايد ، محاولة للوصول إلى التكامل . وقد حاول هكسلي كثيراً أن يتغلب على هذا الصراع النفسي بعزل نفسه عن مجتمعه ولما كنه فشل وحاول مرة ثانية أن ينغمس في حياة معاصريه ويلقى بنفسه في ملذات الواقع ولكن نزعته الانطوائية تغلبت على هذا الشعور . وأخيراً اتجه إلى التهمك والسخرية فلهجوم في علم النفس نتيجة للاجباط وأعلى مراتب هذا الهجوم الانتحار وهو هجوم موجه إلى الذات نفسها ، ولكن هكسلي لم يصل إلى هذه المرحلة التي وصلت إليها فيرجينيا وولف ، مثلاً لأنه يقول : « إنك لا تستطيع أن تكون شيطاناً إلا إذا كنت في قرارة نفسك تؤمن بالله » . ولنسأل : أمن الضروري أن يمر كل كاتب أو أديب بهذه المرحلة الشاقة من التذبذب ، ألا تأتي الحياة الفاضلة المتكاملة إلا بعد هذا الصراع العنيف بين الأنا واللاأنا ويقول ديفيد داتشيس إنها نفس المشكلة القديمة التي واجهت الشاعر « ميلتون » في « الفردوس المفقود » ، فالحياة قبل الخطيئة الأولى في جنة عدن لا تلائم إلا نوعاً سلبياً من الفضيلة ، وكان « ميلتون » لا يهتم حقيقة بهذه الحياة . فبعد الخطيئة فقط ، وفي الصراع الذي بعد السقوط لمحاولة تضيق الفجوة بين الواقع والامثل توجد حياة الفضيلة الحقّة ولو أنها غير سهلة . ولهذا فالخطيئة كانت شيئاً حسناً .

والإجباط سيكولوجياً يعني « حالة تعلق فيها الدوافع المتجهة نحو هدف أو تمتنع قبل إتمامها أو إشباعها » . وأول إجباط صادف هكسلي في حياته كان عندما ترك دراسة الطب ليدرس الأدب . ويظهر هذا الإجباط مع كل أبطال قصصه . فيموت « ديك » بطل قصته القصيرة الأولى قبل أن يحقق حلمه راوده وهو الخروج بنظام فلسفي جامع شامل ، و « دينيس » في « كروم بلو » ١٩٣١ لا يحقق شيئاً ويفكر مرتين في الانتحار كما يقتل القزم

نفسه ، « وجمبريل ، في « أنتيك هاى ، ١٩٢٣ يعتزل مهنة التدريس ويشغل نفسه لفترة باختراع سراويل لها مقعد من المطاط لتساعد من هم نحيل الجسم مثله في الجلوس على المقاعد الخشبية الصلبة ، وأخيراً يفشل في مشروعاته ويرحل عن إنجلترا . وأبوه كذلك لم يوفق في تصميمه الجديد لمدينة لندن ويظل التنظيم دون تنفيذ على مكتبه ، أما محاولات الفنان « لبيبات ، في الرسم وكتابة الشعر فقد أخفقت جميعها ونراه آخر مرة يفكر في الانتحار . ولم يتحقق زواج مسز « فيثيتش ، من توفى وتوفى قبل الحدث السعيد ، كما يموت الإنسان المشوه في مستشفى للمجانين قبل أن تصل أطراف أصابعه للنجوم . وفي « تلك الأوراق الذابلة ، ١٩٢٥ أطلق هكسلى على الفصل الثالث « غراميات لا تتلاقى ، ولهذا لا يتزوج لورد « هوفدون ، من آيرين وتموت خطيبة « كاروان ، البهاء قبل الزفاف ، وفي « تقابل الألحان ، ١٩٢٨ يقتل « ايفيرارد ويبل ، وهو الشخص النشيط الوحيد فى القصة وكانت زوجة « فيليب كوارلز ، قد وقعت فى غرامه ، ويظل زوجها طوال القصة يتذبذب بين حياته الذهنية وحياة اللذة ، والواقع التى ينادى بها « رامبيون ، ويمثل د . ه . لورنس .

وفى علم النفس نرى أن الإحباط يظهر فى صورة هوة فاصلة بين الإرادة والوعى من ناحية وبين القدرة على توفير مطالبها من ناحية أخرى . وكان هكسلى يعانى فى الفترة الأولى من ناحية حياته صراعاً عصياً نتيجة لقيام هذه الهوة التى جعلت تزداد عمقاً واتساعاً . فى قصائده الأولى يظهر هذا الصراع فى بدء حياته فى صورة جدال بين الانا والهى . ولم تكن فلسفته فى الفترة الأولى إلا فلسفة للتبرير كما يقول . وعندما تقدم به السن وازدادت تجاربه أدرك أنه من الضرورى ترويض الإرادة والتحرر من الرغبات لا عن طريق مقاومتها والتهكم عليها كما فى حكاية « العنب الحصرم ، بل عن طريق الإبقاء عليها كمصادر للطاقة التى تدفعنا إلى مداومة البحث عن

طرق أخرى للوصول إلى الأهداف دون التنازل عنها . وطريقة « العنب المحصر » ، جزء مما يطلق عليه في علم النفس الميكانيزمات الدفاعية العدائية والسلبية — الهجوم والتهكم أو الانعزالية « والعنب المحصر » . ويؤثر أبطال قصصه الأولى العزلة والسخرية على الهجوم ، ففي « كورم يلو » لا يستطيع « دينيس » أن ينافس « أيفور » أو « جامبولد » . وفي « أنتيك هاى » ، ظل « جمبريل » ضعيفاً أمام « رامبيون » و « ميركابتان » . وفي « تقابل الألمان » لم يستطع فيلب كوارلز ، أن يقلد رامبيون أو ايفيرارد أو سباتدريل . ولكن هكسلى لم يكن سعيداً حتى في عزلته وانطوائه ويقول : « يشعر الانطوائى بوجود العالم الخارجى رغم أنه لا يعلم عنه شيئاً ، وإذا كان لا يعرف شيئاً عن أقرانه وعن النظام الاجتماعى ، فهو رغم هذا يشعر بوجودهم باستمرار ، ويشعر بقلق لأنه يعتبرهم دخلاء معادين ولهذا ينتابه شعور بالنقص ، بالعزلة ، ويشعر أنه ولد بوجه مختلف » . وكثيراً ما نجد أبطال قصصه الأولى مشغولين بهذا الوجه المختلف . فيردد « دينيس » نفس السؤال ، ويضع « جمبريل » حية مستعارة على وجهه ليغير من شكله ، أما أنتونى فى « ضرير فى غزة » فكان زملاؤه يطلقون عليه « بيفيس صاحب وجه الطفل » :

وهكذا يظهر الإحباط والازدواج فى حياته المبكرة وقد أبرزنا بعض الظروف العائلية التى أحاطت بنشأته ، وهى ظروف تساعد على الازدواج فى التفكير ويتجلى فيها الصراع بين العلم والدين ، وبين العقل والقلب ، وبين الأنا والهى . ولا شك أن هذا الصراع قد خلف عنده شعوراً عميقاً بنجبة الأمل وأعداه أخيراً خير إعداد لقبول فكرة التحرر والخلاص والدعوة لحياة الروح والتصوف فى كثير من الحماس فى كتيبه الأخيرة . فقد صادفت هذه الاضطرابات العاطفية والتشاؤم والسأم والضجر بالحياة وبالنفس تربة نفسية ذات استعداد خاص ، وكانت النتيجة ذلك التحول العظيم من الفلسفة

التشاؤمية إلى الفلسفة الصوفية التفاؤلية . وفترة الإحباط كانت شراً لا بد منه لتنقية النفس وتصفيتها وتطهرها ، وكما يقول الشاعر و . هـ أو دون في قصيدته « عصر القلق » :

إن عقولنا تصر على اضطراب نظامها كعقاب لها .

فإن كان الإحباط والانطوائية قد أبعدا هكسلي عن الحياة والعالم في بادئ الأمر إلا أنهما ، بطريق غير مباشر ، قد عملا على إعادته إلى العالم الرحب العريض ، إلى الآفاق الواسعة ، إلى الطريق الذي أبعده عنه وتمكن قبل فوات الأوان من أن يعود إلى توثيق الصلة بينه وبين الوجود عامة ، ونرجو أن نناقش في الجزء التالي من هذه الدراسة أثر د . هـ . لورنس في فلسفة هكسلي في الفترة ما بين عام ١٩٢٨ . وعام ١٩٣٤ ثم تصوفه في الفترة الأخيرة .

٥ - الفترة الثانية

يبدأ هكسلي في الفترة الثانية من حياته (١٩٢٧ - ١٩٣٤) في الهبوط بمستوى مثله العليا حتى تصبح في متناوله في محاولة لإنهاء الاحباط والتشاؤم والعزلة . فالإنسان الذى ليس له مثلى عليا ، كما يقول ، سيكون تحت رحمة القوى التى تؤثر عليه من الخارج ومن الداخل . والإنسان الذى لديه مثل أعلى يمكن ولكنه صعب المنال يستطيع أن يتقدم تقدماً كبيراً . أما الإنسان الذى يختار لنفسه مثلاً أعلى لا يمكن تحقيقه يملأ قلبه الحزن لأنه يستعين بما حوله من قوى ولكنه يناضلها وبالتالي يصيبه الإحباط .

هكذا تبدأ الفترة الحرجة في حياة هكسلي ، فقد أنزل ببساطة مثله الأعلى من على تماس الدائرة ووضع على محيطها ، ويرر تصرفه في أحد قصائده بقوله « إنى أجاهد في الصعود ولكنى مازلت أمسك بالاقرب ، ويقابل هكسلي د . هـ . لورنس أول مرة في عام ١٩١٥ ولم يتأثر بأفكاره كثيراً لأن هكسلي في ذلك الوقت كان ، كما يقول ، « رجلاً حريصاً ، وكان حديث لورنس دائماً يدور حول الأشياء البعيدة والذاتية البحتة . وتقابلا بعد ذلك بعد الحرب العالمية الأولى ثم في عام ١٩٢٦ في إيطاليا ، ومنذ ذلك الوقت وهكسلي يلزم لورنس حتى وفاة الأخير في عام ١٩٣١ . وبدأت أفكار لورنس تؤثر في حياة هكسلي وكتاباته ، وكتب هكسلي في عام ١٩٢٧ في يومياته :

« إن في هذا الرجل (يقصد د . هـ ، لورنس) شيئاً مختلفاً وعظيماً في

النوع وليس في الحكم ، ، ثم كتب في عام ١٩٢٩ يقول ، إن ميثولوجية مسترد . ه . لورنس الطبيعية الجديدة — جديدة في شكلها ولكنها قديمة موضوعها — تبدو لي كذهب مشمر في إمكانياته ، وبدأ هكسلي يفكر جدياً في تطبيق فلسفة لورنس الجنسية الحيوية ، واستمرت فلسفة لورنس ، الصوفية المادية ، تفنن هكسلي حتى أدرك في النهاية أنها لا يمكنها بأى حال من الأحوال أن تحل محل ، الصوفية الروحية ، التي كان يصبو إليها . فقد كان لورنس وهكسلي مثل النار والماء قد يتجاوران ولكن من الصعب مزجهما . ولكن صداقتهما كانت صداقة متينة وكادت هذه الرابطة القوية بينهما تجعل من هكسلي لورنس آخر أو ، عاشقاً للحياة ، . وقد حاول هكسلي جاهداً في هذه الفترة من حياته أن يجمع بين عالم الجنس وعالم الدين ، عالم الروح وعالم الجسد ، وحاول أن يعيش الحياة طويلاً وعرضاً ، على المحور الرأسى وعلى المحور الأفقى ، أن يحصل على ما يريد كما ونوعاً . ولكن تكوينه العقلى والجسمانى كان سيئاً في منعه من المضى في ممارسة هذه الحياة الصعبة . ويقول ، ومن على هذا المستوى البشرى المتنوع يستطيع أى فرد أن يتحرك إلى ما لا نهاية ، إلى أعلى أو إلى أسفل ، ناحية الوحدة مع الأصل الإلهى الذى هو أساس وجود الفرد ووجود الكائنات أو إلى أسفل أطراف جحيم الانفصال والإثارة وحب النفس . أما فيما يختص بالحركة الأفقية ، حرية الاختيار مقيدة هنا ومن الصعب على الإنسان أن يغير تركيبه الجسمانى إلى نوع آخر ، . فالناس تختلف فى أمزجتها وطبيعة تكوينها الجسدى على المستوى الأفقى . وتختلف فى القدرات على المحور الرأسى . ولا يستطيع الانبساطى النزعة أن يغير مكانه على المستوى الأفقى ويصبح انطوائياً ، والعكس صحيح . ولكن كل منهما يستطيع أن ينمى قدراته على المستوى الرأسى . وبالرغم من التفاوت الكبير بين الاثنين فقد حاول هكسلي أن يجعل من نفسه شبيهاً بلورنس الذى يعتمد على القوة الحيوية التي تزحف تحت

جلده ؛ واعتنق هكسلى هذه الفلسفة وأضافها إلى فلسفاته الأخرى وأخذت
ميثولوجية لورنس الطبيعية التى تمجد الدم والبروتوبلازم والحياة التلقائية،
تحول انتباه هكسلى إلى حياة الإنسان الفطرى النبيل ، حياة العيش الغرزى .
وفى عام ١٩٣٤ أو ما قبل ذلك أدرك هكسلى أن طريق لورنس طريق شائك
لا يناسبه ، ونقرأ له فى «فيما وراء خليج المكسيك» وبعد وفاة د.ه. لورنس
« لا يمكننا أن نقبل دعوة لورنس ، فقد تصفح لورنس كتاب التصوف
وقرر أن ما وجدته هناك هو تفوق الدم وأحقية ،

٦ - صورة د.ه. لورنس فى «تقابل الأنا» ١٩٢٨

وأول صورة تظهر للورنس فى أعمال هكسلى هى صورة كينجهام فى
عام ١٩٢٦ والصورة الكاملة تظهر فى «تقابل الأنا» فى شخصية رامبيون .
ويبدو أثر فلسفة لورنس الطبيعية فيما يشبه المونولوج الداخلى فى مذكرة
فيليب كوارلز الذى يمثل هكسلى :

« وبعد بضع ساعات فى صحبة رامبيون ، كان فعلا يؤمن بالبداية الفطرية
النبيلة ، كان يشعر باقتناع بأن العقل الواعى لا بد له من أن يتواضع قليلا
ويتقبل مطالب الجسد والقلب — نعم والأمعاء والعظام والجلد والعضلات ،
لا بد أن يكون لها نصيبها من الحياة ، يا ليتنى أستطيع أن أحصل على شيء
من سره ! سأذهب لرؤيته عند وصولى إلى إنجلترا . ولقد صور هكسلى
لورنس فى هذه القصة تصويراً رائعاً وأعطى له صورة رجل يفيض بالحياة
والنشاط يعيش عيشة غرزية طليقة . ولكن هذه الصورة سرعان ما تكشفت
لهكسلى فى عام ١٩٢٤ حين أدرك وعورة الطريق :

« إن التطور من الحالة البدائية إلى الحالة الحضارية ، من مجرد العيش
فى الدم إلى العقل والروح ، تقدم له ثمنه المحدد . وليس هناك تخفيض فى
الثمن حتى لهؤلاء المشترين من أصحاب المواهب الفذة . ولقد كنت أظن

إنه يمكنني تجنب دفع الثمن ، أو على الأقل تخفيضه تخفيضاً كبيراً ، وأنه من الممكن أن يستفيد الإنسان من العالمين . ولكن هذا ، كما أعتقد ، ما هو إلا وهم ؛ فالثمن الذي يجب أن ندفعه سبيل العقل والروح لا يمكن بأي حال من الأحوال تخفيضه . .

وفي « تقابل الألحان » حاول هكسلي أن يصل إلى تركيب فلسفي جديد وكانت مشكلته هي التوفيق بين مطالب الجسد ومطالب العقل والروح ، أو الجمع بين الاستمتاع الكامل بالحياة من حوله مع الاحتفاظ بالمسافة بينه وبين مجتمعه . ولكنه لم يوفق . ونقرأ في يوميات فيليب كواراز : « كان دائماً يعرف في قرارة نفسه أنه لم يكن كاثوليكيّاً ، أو رجلاً يحب العيش الرغيد ، أو متصوفاً أو إنساناً فطرياً ولو أنه كان يأمل أحياناً في أن يكون واحداً منهم أو كلهم مجتمعين . إلا أنه كان سعيداً لعدم كونه واحداً منهم وفي استطاعته أن يتمتع بحريته حتى ولو كانت حريته هذه ، بطريقة متناقضة ، عقبة في سبيل نمو روحه . »

ومن ناحية الصنعة الفنية في هذه القصة نرى أن طريقة كتابتها توحى إلينا بأن لورنس لم ينجح تماماً في التأثير على أفكار هكسلي . فالعقل الذي ركب أجزاء القصة المعقدة وحوادثها ورسم شخصياتها الكثيرة العدد عقل واع وليس بعقل يتصرف تلقائياً . ففي القصة مجهود فني كبير وآراء متشعبة تتنافى مع التلقائية التي ينادى بها هكسلي في القصة . ولا تحقق جميع الشخصيات شيئاً يذكر في القصة وتتحرك آلياً وكأنها أشباح لا شخص من دم ولحم . ولا نرى رامبيون إطلاقاً وهو يمارس الحياة الغريزية الفطرية النبيلة ، فهو يتكلم عنها طول الوقت ولا يفعل شيئاً . وتركيب القصة الموسيق وعنوانها لا يوحى بالتوافق في الألحان فهي محشوة بخليط من الأنغام المتنافرة المتناقضة قصد بها هكسلي أن يعرض لنا الشيء الواحد من وجهات نظر مختلفة (أنظر

« موسقة القصة ، في « القصة في الأدب الإنجليزي ، ويظل فيليب كوارلز الشخصية المحورية في القصة ونقرأ أخيراً في يومياته :
« حياة كاملة مؤتلفة النظم - هل حقاً ستكون ممكنة ؟ إنى أتخيلها :
ولكن ، في الحقيقة ... ؟ وعلى كل حال ربما يكون من المثير رسم شخصية على هذا النمط ، .

وقد كان من المثير ومن السهل رسم شخصية لورنس في قصة ، واسكنه كان من المستحيل على هكسلي تقمصها في الحياة نفسها وظل هكسلي في عالم الحس والشعور واللذة والجنس كما كان دائماً : المتسائل الحائر . ولم يكن لورنس بعد كل هذا آخر ورقة رابحة في يد هكسلي ، فقد كانت الورقة التي قبل الأخيرة . فهل يا ترى ستكون الورقة الأخيرة خاسرة هي الأخرى ؟ .

ميثولوجية د . هـ . لورنس الطبيعة من الناحية النظرية :

تقابلنا فلسفة د . هـ . لورنس مرة أخرى في كتاب هكسلي « افعل ما يحلو لك » ١٩٢٩ وهو مجموعة من المقالات حاول فيها هكسلي أن يبلور فلسفته اللورنسية الجديد . وأخذ يصب جام غضبه على « باسكال ، ويدرس العلاقة بين التركيب الجسماني والمزاج الشخصي وأثرهما في الإنتاج الفلسفي . والمقالات دراسات في نوع الكون الذي يسكنه ويؤمن به أفراد من أحجام وخصائص جسمانية متباينة ، وفي نوع العبادة التي يفضلها كل منهم . وهاجم باسكال لأنه كان يؤمن وينادي بالطلق :

« والمطلق ما هو إلا تجريد من الحياة نفسها ، هروب من التعدد إلى كائن بلا كينونة . فالعالم الروحي بديل هزيل للعالم الواقعي ، .

لقد كان باسكال يريد المطلق لأنه كان في مسيس الحاجة إلى نوع من الاستقرار والنظام . وأخيراً يرفض هكسلي المطلق لأنه لا يقبل أن يفرض عليه باسكال فلسفته التي كيفها مرضه وجسده ومزاجه الشخصي . فليس للرجل المريض أن يصدر أحكاماً على تصرفات الأصحاء ، وأصبحت فلسفة

باسكال ، أو «ميتافيزيقا النور الجيا» كما يسميها هكسلي ، ضد حيوية ما ينادى به هكسلي .

وهكذا يترك باسكال وفلسفته لأنه يذكره بالموت وبالزمان وبالمرض وبالمطلق وبالروح وبالتسامي ويحب لورنس لأنه جعله يفتح عينيه على ملذات الحياة وما يكشف عنه العيش الغرزي والدم والحياة وما يحس به المعاني من متعه بالعالم . وفي الجزء الأخير من الكتاب بلورهكسلي فلسفة لورنس الجديدة في الحياة الفطرية ، فالحياة على هذا السكوكب قيمة في حد ذاتها دون الإشارة إلى عالم علوى سماوى أو ما لا نهايات أو حياتنا في المستقبل . وحيث أن الغرض من الحياة هو أن نعيش فلا بد إذن من أن يكون هناك تباين وتعدد . ولهذا يرى في قصيدة الشاعر بليك «زواج الجنة والجحيم» أعظم تعبير عن «ميتافيزيقا حب الحياة» وملخصها هو أن يحاول الفرد أن :

« يعادل الإفراط في المعرفة الواعية بإفراط مماثل في الحدس وفي العيش الغرزي ، يحاول أن يعادل الآثار السيئة المترتبة على الإفراط في التأمل بإفراط مماثل في العمل والحركة ، والإفراط في العزلة بالإفراط في الاختلاط والإفراط في المتعة بالإفراط في التقشف ،

ويقول لنا «س . م . جود» في كتابه «عودة إلى الفلسفة» ص ٦١ في نقده لمذهب هكسلي الحيوى هذا :

إذا حكمنا على مذهب هكسلي في الحيوية . . فإن هكسلي شخص نافه . فهو لا يستغل قواه الجسمانية استغلالا تاما . وهو لا يعيش حياة الرغبات أو الحواس ، وأفعاله لا تنقسم بطابع الخشونة أو القوة ، وهو بعيد عن الطبيعة ولا يختلط بالعالم من حوله . وأخشى أنه لا يعرف حتى كيف يستمتع بأكلة طيبة . لا ، أن هكسلي لا يتمتع بحيوية دافقة . .

وبالإضافة إلى هذا ففلسفة حب الحياة والإفراط تفشل في المدى الطويل حسب قانون تناقض الغلة أو قانون الجهد العكسى .

لتطبيقات العملية لميثولوجية لورنس الطبيعية

تعتبر قصة هكسلى القصيرة الطويلة « ما بعد الصواريخ » ، فى عام ١٩٣٠ نقطة تحول خطير فى إنتاجه الأدبى ففى فيها تطبيقا لمذهب لورنس الحيوى وميثولوجيته الطبيعية . فقد كان لفلسفة الإنسان الفطرى النبل أو الحياة الجنسية بريقها الخاطف وسحرها لفترة قصيرة كالألعاب النارية أو الصواريخ ، وسرعان ما أطبق الظلام على هكسلى من كل جانب . ونرى فى شخصية بطلها « مايلز فانتج » ، ظلالة من شخصية « رامميون » الذى قابلناه فى « تقابل الألمان » ، واسكنه أخذ يتقدم فى السن تقدماً سريعاً ؛ نراه رجلاً بدون حيوية دفاقة ، رجلاً مريضاً متعباً ضعيفاً يستشفى فى إيطاليا . وكان من عادة هكسلى أن يزيد من سن أبطاله فى قصصه تدريجياً ، واسكننا نرى « مايلز فانتج » وقد بلغ فجأة من العمر خمسين عاماً ، وكان هكسلى يريدنا أن نرى آثار حياة الإسراف والجنس بأسرع مما كنا نتوقع . « فمايلز فانتج » رجل متعب من ممارسة حياة المتعة مصاب بالصفراء ، نراه وقد غابت عيناه واصفرت بشرته . وربما كان هكسلى فى ذلك الوقت يفكر فى صورة لورنس قبل وفاته فى عام ١٩٣٠ وأثناء مرضه ، فقد بدأت الحيوية التى كانت تندفق من لورنس تتخلى عنه ورأى هكسلى مثله الأعلى يحتضر أمام عينيه .

ولقد فسر مايلز فانتج فى أن يعادل الإفراط فى المتعة بإفراط مماثل فى التقشف واضطر أخيراً إلى أن يعيش فى عالم الرجل المريض ، عالم باسكال الذى كان هكسلى يحاول جاهداً أن يهرب منه . فلو لم يسمح مايلز فانتج لنفسه بالانغماس فى ملذات الحياة وممارسة العيش الغزى لما ذهب إلى أقبية مونت كافو ، ولو لم يخلع ملابسه لما أصابه هذا البرد فى كبده ولما أصيب بالصفراء . ويعترف هكسلى فيما بعد فى مقدمته لرسائل د. ه. لورنس :

إن لكل عمر من أعمار الإنسان فلسفته المناسبة في الحياة . ولا بد أن اعترف أن فلسفة لورنس لم تكن فلسفة مناسبة مع التقدم في السن أو العجز في القوى . وبالإضافة إلى هذا فهناك حالات معينة يصبح فيها العيش التلقائي من الأمور التي تشتت الفكر . .

وعندما كتب هكسلي هذه الأسطر كان يقترب من سن الأربعين وشعر بما يجنبه له المستقبل إذا ما اقتفى أثر لورنس ، وأدرك أن فلسفة لورنس وعبريته كانت تصر دائماً على العيش الغرزي التلقائي وتتجاهل المثل العليا والمبادئ الثابتة والعقل والعلم . فلم تكن فلسفة لورنس لتملاً الفراغ الذي كان هكسلي يحس به في قرارة نفسه وأصبح التصوف الجنسي المادى بديلاً هزياً . فالإدمان في هذه الحالة أو الإفراط قد يخفف من وطأة الإحباط ولكنه في الوقت نفسه يزيد من آلام الإحباط التي يجب تسكينها ، ومن الغرائز التي يجب إشباعها من آن لآخر .

وهكذا فشلت فلسفة « التعادلية » هذه في حل مشكلات هكسلي النفسية والروحية وفي القضاء على الإحباط في حياته . وكان لابد له من البحث عن ذاته الأصلية ، كان لابد له من العودة إلى نقطة البداية ، إلى المسكان الذي فقدوها عنده ، ولم تحل فلسفة لورنس مشكلة الإزدواج ، فالإزدواج يسبب الإحباط تماماً كبعثرة النفس في كل اتجاه ، ولم تستطع فلسفة لورنس كذلك أن تملأ الفراغ الذي خلفه ضياع الإيمان أو تحل مشكلة الكون والحياة . فقد كان لفلسفة لورنس الديموقراطية التي تنادى بتعدد الآلهة نتيجتين ، كما يقول هكسلي ، الأولى أونتولوجية والثانية خلقية . « الأولى هي ما يمكن أن أطلق عليه فلسفة أن لا هدف للكون . فليس هناك هدف أو فائدة ... عش ودع الآخرين يعيشون وسر في الطريق للطبعي الذي يمتد بدون هدف . وهذا المذهب له مثيله من الناحية الخلقية في مذهب اللامبالاة . . ويبدأ هكسلي في مراجعة فلسفة باسكال ويدرك أن الطريق الطبيعي الذي

يتمتد بدون هدف يعنى خفض مستوى المثل العليا ، واللامبالاة تذكى نار
فلسفة العدم، ولهذا نجده بعد عام ١٩٣٢ ينحو نحو المطلق ثانية ويفضله بالرغم
نما فى الوصول إليه من مشقة على العيش الغرذى . فالتلقائية ، كما يقول ،
« ليست سر السعادة الوحيد المعصوم من الخطأ ، وليس من الضروري أن
تكون حياة الروح كارثة . » لقد كان خط سير لورنس أفقياً فى جميع الجهات
على المستوى الإنسانى تتفجر قواه من ذاته فى جميع الاتجاهات وعاش حياته
عرضاً دون هدف . ومغزى الحياة وقيمتها لا يأتیان إلا عن طريق تجميع
القوى وتركيزها تجاه هدف واحد محدد . ويمكننا فى هذه المرحلة من تلخيص
فلسفة هكسلى على النحو التالى : لقد اهتم هكسلى فى بدء حياته الأدبية عندما
كان يلعب دور « المتسائل الحائر » بالأجزاء ، وفى الفترة الثانية اعتنق فلسفة
لورنس الحيوية التى تهتم بكل شىء دون انتقاء أو نظام ، والآخرى تنظم
الأجزاء فى وحدة هادفة وتكشف لنا عن التعدد الذى ترتبط أجزاءه ببعضها
ببعض . ونرى هكسلى فى كتابه « فيما وراء خليج المكسيك » ١٩٣٤ يستعد
لحياة التصوف بقوله : « إن محاولة العودة إلى الحياة البدائية غير عملية
وأعتقد أنها خطأ . » فالمسؤولية الفردية هى جوهر كل النظم الخلقية
الموجودة . وفى كتابه « موسيقى فى الليل » ١٩٣١ يقول : « حقيقة إن معظم
الآراء ما هى إلا تبرير ذهنى للاحساس ولكن هذا لا يعنى أن الشعور أو
الإحساس أهم من الأفكار فى عالم الحركة . »

وقد كانت فلسفة هكسلى الحيوية فى الفترة الثانية تركيباً ، ولكن التركيب
لا يعنى موضوعاً مضافاً إليه نقيضه . فتركيب الفترة الثانية تركيب واسع
فضفاض لا يتفق مع طبيعة تفكير هكسلى وتكوينه العقلى والجسمانى ،
فالتركيب شىء مختلف عن الموضوع ونقيضه ، أنه تكامل وتداخل الاثنين ،
شىء آخر يسمى فوق الاثنين ،

٧ - المشكلة :

من الأمور المثيرة وجود ما يشير إليه هكسلي في « تقابل الألحان ، وما بعدها بكلمة » استفهام ، أو « سؤال ، في شكل » مشكلة ، يحاول أن يحدها حلا كلما ظهرت . وقد تعرضنا لهذه المشكلة في الجزء الأول من البحث حين كتب هكسلي يقول : « سبع كلمات تلخص لنا كل ترجمة ذاتية : إلى أرى الأفضل وأستصوبه ولكنى أتبع الأرء . ، ولا يقبل فيليب كوارلز في « تقابل الألحان ، هذا التلخيص الجائر لكل ترجمة ذاتية ونراه يكتب في مذكراته :

« إن المشكلة بالنسبة لى هى تحويل الشك الذهنى المنعزل إلى طريقة متكاملة للعيش المتناسق . ، وكانت كلمة « تحويل ، تعنى تغيير الشكل أو القالب الذهنى فقط وليس تغيير المحتوى ، تغييراً من الخارج لا تغييراً جذرياً كلياً للمادة ذاتها . وتقابل فى « موسيقى فى الليل ، مشكلة أخرى : « المشكلة هى أن أوفق بين الحيوان وبين المفكر ، أن أجعلهما يتعاونان فى بناء رجولة كاملة . ، وكانت هذه العبارة تلخيصاً لفلسفة لورنس الحيوية . وفى عام ١٩٣٢ فى مقدمته لرسائل لورنس نلاحظ تغيراً فى وجهة النظر وفى المشكلة ذاتها وأصبح هكسلي لا يؤمن بنظرية لورنس التى تقول إن الإنسان لابد وأن يعيش على المستوى الأدنى وينمى إمكانياته أفقياً على المستوى الإنسانى فقط دين أن يحاول أن يعلو بمستواه عن ميراثه الجسمى والعقلى والعاطفى والنفسى . وأصبح التكامل بهذه الطريقة تكاملاً أفقياً لا يسمو بالإنسان . وفى عام ١٩٣٤ تأكد هكسلي من المنطق المضلل فى فلسفة لورنس التى تمجد الدم والغرائز : « إلى أفضل الحرية التى ينادى بها سينوزا عن طريق المعرفة والفهم على العبودية للعواطف مهما كانت حصيلتها من المعرفة الغريزية . ، وأصبحت فلسفة لورنس التى تنادى بالمرج بين الحيوان والإنسان فلسفة

خطرة . وفي « ضرير في غزة » ١٩٣٦ تقابلنا مشاكل أخرى يتحدث عنها بطل القصة أنتوني في مذكراته ، وهذه المشا كل تختص بناحية التطبيق العملي الذي يؤدي إلى معرفة النفس لأن هكسلي كان قد وصل إلى مستوى أعلى من مستوى لورنس الغرزي . « فالعلم بالشيء » كما يقول هكسلي ، « من الأمور السهلة ، ولكن تطويع الإرادة والعمل المتواصل من الأمور الصعبة دائماً » ، والمشكلة في « ضرير في غزة » هي كيف نحب ؟ وبعدها مشكلة أخرى « كيف نجتمع بين الإيمان بأن العالم إلى حد ما وهم وتخيل وبين الاعتقاد بأنه ضروري لتحسين التخيل والوهم ، كيف يمكنك ألا تكون عاطفياً ولا تقاسي من اللامبالاة في وقت واحد . وأن تكون رزيناً كرجل مسن ونشيطاً كالشباب » ، وكانت المشكلة هي الجمع بين الحيوية والرزانة ، بين العمل والتأمل ، ومحاولة التخلص من نتائج الإفراط . وفي قصته « ومر صيف بعد صيف » ١٩٣٩ يعطى لنا هكسلي صوراً لثلاثة مستويات : المستوى الروحي ، والمستوى الإنساني ، والمستوى الغرزي الحيواني ويطالبنا بالتسامي إلى المستوى الروحي . ولكن آراء « بروبتر » ، وهو المتكلم باسم هكسلي ، كانت متطرفة إلى حد ما ويظهر هذا من حكمه القاسي على عدم أهمية العيش على المستوى الإنساني ولكنه قال كلمته الأخيرة في القضاء على فلسفة لورنس الحيوية وصور لنا عابد الملذات كشخص سجين يعيش كما يقول في .

« فقص زمكاني تجوب فيه غرائزه وعواطفه . وإذا كان للسرمدية أو جوهر النفس أن تعيش في هذا الفقص الزمكاني لأي فرد ، فلا بد لهذا الحشد الذي نسميه بالنفس من أن تلبذ عن طيب خاطر جنون حركتها ، لا بد لها من أن تفسح الطريق للوعي اللازمي ، لا بد لها أن تصمت لتجعل من الممكن هبوط السكون العميق . فائقه موجود في غياب ما نسميه بأدميتنا فقط » .

وكانت المشكلة حينئذ هي التخلص من حشد الشخصيات المتنافرة ومن

الفوضى النفسية حتى يصل إلى إماتة الذات وفنائها . وفي « أدونيس والأبجدية » ، ١٩٥٦ . وكان هكسلي قد تصوف ، تراه يكتب عن مشكلة أخرى :

« المشكلة ، كالعادة ، هي كيفية التخلص من النور الشخصي . وينحصر عملنا في تخليص أنفسنا من العادات السيئة التي تحجب عنا الضوء لا على المستوى الأخلاقي فحسب بل على المستوى الذهني والعاطفي . ، ويصبح الاكتمال لا عن طريق حياة عريضة بل عن طريق تلاشي الشخصية وفناء الذات والوصول إلى اللا - أنا أو الهى التى تسمو فوق النفوس الأخرى والأنا . وهذه اللا - أنا أقرب ما تكون إلينا ، كما يقول هكسلي . أقرب إلينا من أيدينا ومن أرجلنا وهى أسمى ما يصبوا إليه إنسان ، وهى أسمى غاية لوجود الفرد .

وكان من الضروري أن يتخلص هكسلي من رذائله قبل أن يبدأ رحلته الروحية ، وأهم ما كان يشغل باله كما يقول لنا في كتابه « أدونيس والأبجدية » ، هو « معرفة من الذى يقوم بالتمثيل فى كل أدواره المختلفة » . وأصبح الاستبطان عنده وسيلة لغاية لا غاية فى حد ذاته ، فالاستبطان وتأمل الذات والانشغال بها قد يكونان سبباً فى عرقلة المتصوف . « فالذين يولدون ولهم ميل إلى تأمل ما حولهم لا بد لهم أن يتعلموا كيفية تأمل ذواتهم إذا أرادوا أن يعلموا شيئاً عن الروح الإنسانية » ، هذا هو ما يقترحه هكسلي لمن هم انبساطيو النزعة أما الانطوائى بطبعه ، فيجب عليه أن يروض نفسه على إماتة ميوله الفطرية ناحية الاستبطان لذاته ، أو الفكر والتخيل وتحليل النفس كغايات فى حد ذاتها بدلا من اعتبارها وسائل تقوده إلى السمو فوق الخيال والتفكير الذهني حتى يصل إلى المستوى اللازمى للفكر الخالص البديهي . ، فمعرفة النفس لا تكفى وحدها بل يجب أن تكون معرفة النفس طريقاً يقودنا إلى معرفة الهى أو اللا - أنا . فمعرفة النفس الحقيقية هي بسط

الذات دون جهد لتقبل الاستنارة وهي في الوقت ذاته ادراك مباشر لفناء الذات التي تقوم بهذا البسط التلقائي . « وإذا ظل معظمنا جاهلاً بذاته ، كما يقول هكسلي ، « فذلك لأن معرفة النفس من الأمور الشاقة المؤلمة ، ونحن نفضل ملذات الوهم : ، فالجهل بالذات يؤدي إلى تصرفات غير حميدة ، وبدون معرفة الذات لن يكون هناك تواضع حقيقي وتبعاً لذلك لن يكون هناك فناء فعال للذات ولا معرفة وطيدة بالذات العليا التي هي أصل الذات ، وكثيراً ما تحجبها الأنا . ومعرفة الذات عند هكسلي ليست ادراكاً واعياً للأنا ولكنها معرفة الهى أو اللا - أنا والتي يطلق عليها هكسلي الروح القدس أو أتمان - براهمان أو النور الساطع أو الهكندا ، وهي نوع من الوعي الجمعى وأنتباء عقلى كامل .

« وعن ماذا يكشف هذا الوعي الكامل لمن يمارسونه ؟ ويجب هكسلي فى نفس الكتاب : « يكشف أول ما يكشف عن قصور ذلك الشيء الذى نطلق عليه جميعاً كلمة «أنا» ، وعبث ما تدعيه .. فالوعي الكامل يبدأ ، باختصار ، بادراكى للجهلى وعجزى . .

وهكذا تبدأ المشكلة بحالة الإنسان المعذب وضعفه فهو يرى الأفضل ويستصوبه ولكنه يتبع الأرداً . ويحاول هكسلي أن يصل إلى حل لهذه المشكلة عن طريق الإفراط بحكمة ، وتفشل فلسفة لورنس ثم تتحول المشكلة إلى مشكلة معرفة الذات عن طريق الانطواء والاستبطان ويقوده هذا أخيراً إلى إنكار الذات ومحاولة الوصول إلى الهى ومن هذا المستوى إلى النور الساطع أو السكون المعبر . وقد نحقق هذا التكامل الذاتى عن طريق إرادة سامية أو ما يطلق عليه هكسلي ، الإرادة المنظمة الآمرة ، وهي نوع من القدرة على الفهم والإدراك المباشر ولا تمت للمعرفة العقلية بصلة ؛ والإرادة المنظمة الآمرة لها القدرة على إسكات الأنا الواعية وعلى تكيف الانعكاسات المكيفة أو إعادة تكيفها .

٨ - التحول العظيم عن طريق الرمز :

تعتبر تجربة الهداية أو مرحلة التنور ، شأنها في ذلك شأن أى تجربة نفسية أو عاطفية يمر بها الإنسان ، من أصعب الأمور عندما نحاول أن نصفها في كلمات ، فالكلمات قاصرة دائماً عن التعبير عن أى تجربة صوفية كانت أم نفسية . فالتجربة الصوفية في أساسها نوع من الكشف اللحظي الفجائي وعملية تفاعل سريعة - بصيره وإدراك لا يمكن إيصالها إلى الغير - وليس من السهل التعبير عنها في صور لفظية دقيقة ، ومن العسير نقل مضمونها للآخرين لأنها حالات من الشعور وليست بحالات ذهنية . ولهذا الحالات أو الومضات أو الإلهامات دلالات قيمة وسلطان ضخم على أصحابها . وهذه الحالات سريعة الزوال ، ولكن بالرغم من هذا فأثرها ثابت في ذاكرة أصحابها . وهذه التجارب النفسية لا يمكن المشاركة فيها ويجب على كل فرد أن يمارسها بنفسه . ويلجأ المتصوف إلى الإشارة أحياناً وإلى الرمز أحياناً أخرى ولهذا كان الأدب الصوفي أدباً مغلقاً إلى حد ما ، أدباً غير مفهوم الدلالات وكما يقول هكسلي :

هناك أنواع عديدة من التجارب الذاتية العميقة التي لا يمكن تحليلها . إحساس عميق ، مثلاً ، ولنقل أنه شعور طاغ مفاجيء يعقبه استنارة داخلية أو إيمان .

والمشكلة إذن هي : كيف نعبر عن مثل هذه التجارب ؟

وهناك طريقتان : الأولى ، طريقة السرد المباشر والوصف ، والثانية ، طريقة الإيحاء الرمزي ، وهنا لا نصف التجربة أو نذكرها بل نشير إليها ضمناً . وهكذا يلجأ الأديب إلى سلسلة من الأقوال التي تتمركز معانيها حول نقطة خارج الموضوع ذاته وتصبح هذه النقطة هي التجربة المراد وصفها .

ولا يعتبر هكسلي من الكتاب الرمزيين الذين يسرفون في استعمال رموزهم ، والرموز القليلة العدد التي يلجأ إليها لا تثير فينا احساسات أو

عواطف معينة ولكنها تعنى بتوصيل فكرة مجردة أو تضيف على تجاربه المتعددة المتشعبة إطاراً ينظمها ويجمع اشتاتها . وقد تحدت رموزه بضعف بصره كما بينا في الجزء الأول من البحث منذ البداية . وغالباً ما يطرح هكسلي جانباً الطريقة المباشرة في وصف تجاربه الذاتية وإحساساته العميقة ويلجأ إلى التقابل أو القياس أو الإيحاء الرمزي . ونجد رموز الأزل والالانهاى والخلاص والاستنارة والبعث في نسيج أعماله بشكل مستمر منذ البداية . ورموزه إما رموز هندسية أو من الحيوانات والطيور أو من الظواهر الطبيعية . والرموز الهندسية هي الدائرة ومماسها والعجلة واللوب والخروط ومن الحيوانات الفأرة العمياء ومن الحشرات زيزان الحصاد ومن الرموز الطبيعية الجبال والصحراء والنهر والبحر ، وأعتقد أن العبارة التالية من « تأملات » برونو المتصوف في قصته « لا بد للزمن من وقفة » ١٩٤٤ تشرح لنا رموزها التحول في حياة هكسلي في قصيدته « زيزان الحصاد » أو الفراشة وكتبها عام ١٩٣١ : « وبالطبع ، أخذ برونو يفكر ، أن البحث اختياري .

فنحن نجد أنفسنا مضطرين لأن نعيش — نعيش كما نحن ، ونسير من أسوأ إلى أسوأ ، إلى ما لا نهاية حتى نرغب في الصعود مرة ثانية كشيء يختلف عما كنا عليه ؛ سيحدث هذا حتماً ، إلا إذا لم نسمح لأنفسنا بأن نرتقي .

وتعتبر قصيدته « زيزان الحصاد » بدء تحول نحو التصوف وفيها محاولة للتعبير عما يطلق عليه ولیم جیمس في كتابه « صنوف التجربة الدينية » الميلاد الثاني وأتبعها هكسلي بكتابته « عالم جديد شجاع » ١٩٣٢ ثم مقدمته لرسائل لورنس ثم ما كتبه عن التصوف في « فيما وراء خليج المكسيك » ١٩٣٤ « وضرب في غرة » ١٩٣٦ . وبعد عام ١٩٣٦ انسلك المتصوف من السايخر وظهر هكسلي الحقيقي وطغت شخصية المتصوف على كل الشخصيات

الأخرى وألقى هكسلى بأفئعته وظهر وجهه الحقيقي . فلقد قرر هكسلى أن يترك « عالم الظلام » الذى كان لورنس ينادى به ويعيش فى عالم النور .

(و « عالم النور » عنوان مسرحية هكسلى كتبها فى عام ١٩٣١) . واستطاع هكسلى أن يخرج نفسه من توقعته ونجح فى الإفلات من يرقته التى ظل حبسها فيها لمدة طويلة . ونقرأ فى مذكرة أنتونى فى « ضربى غزة » وهو يشير إلى هذا الخلاص : « لقد أصبح الآن وافرة خارج جحره - لقد طرد منه كما لو كانت العرس تطارده » .

ومن تاريخ حياة زيزان الحصاد ودورها نعلم أنها تضع بيضها على فروع الأشجار وتخرج الديدان الصغيرة بعد الفقس وتسقط على الأرض وتدفن نفسها فى التربة وتتغذى من جذور الأشجار والنباتات ثم تتحول إلى « عذراء » فى يرقتها .

وتبقى « العذراء » هكذا فى سبات عميق أثناء فترة الاستكنان الشتوى لمدة ١٧ عاماً تخرج بعدها من اليرقة كفراشة كاملة . وترمز الفراشة بأطوارها المختلفة إلى التحول فى حياة هكسلى من مرحلة البويضة إلى مرحلة الفقس ، وترمز أيضاً إلى وجه التشابه بين موتها الظاهر وعيشها فى عالم مظلم تحت سطح الأرض وعزلتها وضعف بصر هكسلى وانطوائيته ، وأخيراً إلى الشبه بين خروجها من وادى الموت إلى النور والحياة بعد بعثها أو « ميلادها الثانى » ، وإدراك هكسلى لأهمية التسمى والعيش فوق المستوى الغرزى . ومن الغريب أن هكسلى بدأ حياته الأدبية فى عام ١٩١٦ واستمر يلعب دور المتسائل الحائر حتى عام ١٩٣١ عندما كتب « زيزان الحصاد » وهى الفترة التى تبقى فيها زيزان الحصاد فى حالة موت ظاهرى . وتبدأ القصيدة :
إلى أنتفس وانلمس فى الظلام .

ونتعرف على هكسلى من أول سطر فيها ، فالعذراء تنففس وتؤكد الحياة الكامنة فيها .

وهناك صمت تحت الأشجار .

صمت الأصوات المستمرة الحى .

إنى أسمعها تغنى ، وأنا الذى كنت فى ليل مظلم ،

ملوء بالسحب والأغصان أظن اننى مررت ،

خلال يأس الروح لظلم ،

محروما من البصر الداخلى والخارجى .

وتنتهى القصيدة بنوع من الاستنارة العقلية أمام معجزة الوجود هذه

ويدرك أن من ظل بعيداً عن النور لابد أنه سيرقى إليه وحين يصعد

الإنسان إلى النور فإنه يكتسب قدرة ذاتية جديدة وحينئذ يتحقق العجب

الحقيقى أمام معجزة الوجود وتبدد الأوهام وتصفو العقيدة .

نمضى دون هدف : ولكنى سمعت صوتك ،

اللاعقل الإلهى ! تعزف على القيثارة بين الأغصان ،

وما عدت أحزن ، لأن الحكمة لا تحزن ،

وقد علمتنى الحكمة : إنى مبتهج .

وفى عام ١٩٣٦ استغل هكسلى فى « ضرير فى غزة » الرمزىة فى الفرافشة

مرة أخرى فهاجم لورنس لأنه كان يفضل استغلال هذه الحبوبة التى تزحف

وتنسب تحت جلده فى العيش على المستوى الإنسانى فقط ولم يسمح لها بأن

تنقله إلى مستوى أعلى . وبدأ هكسلى كذلك يدرك أن العقل وحده غير كاف

ولهذا يكتب بطل القصة فى يومياته :

« الفكر والسعى وراء المعرفة — لقد كانت هذه هى الأهداف التى

استغل من أجلها المعلومات التى شاهدها تزحف تحت الحجر ، والتى كانت

تصبح بتحد فى الظلام . الفكر كغاية ، والمعرفة كغاية . والآن وفجأة ، أصبح

من الجلى أنها وسائل فقط ، مادة خام بكل تأكيد كالحياة نفسها . »

ثم نقرأ في جزء آخر من اليوميات :

« لقد ذهبت مع « ميلر » لمشاهدة فيلم على ... كان الفيلم عن الذبابة .
البويضات ، والديدان على قطعة من اللحم العفن . بيضاء كالثلج ، كقطيع من
الأغنام في مرعى . تبعد عن الضوء . وبعد خمسة أيام من النمو تنزل إلى
الأرض ، تحفر ، وتصنع شرنقة . وبعد اثني عشر يوماً أخرى ، تظهر الذبابة .
عملية بعث غريبة الشكل وتنفتح اليرقة حتى ينشق جدارها وتنسلخ الذبابة
خارجة . تطير إلى أعلى ، نحو النور » .

ويشير هكسلي رمزياً إلى أن طريق الخلاص هو البعث أو الصعود إلى
أعلى نحو النور وليست الرمزية هنا بمجديدة ، فقد تحدث عنها « أميرسون »
في إحدى مقالاته : « إن التقدم الروحي لا يحدث تدريجياً في خط مستقيم
ولكن عن طريق الصعود من مرتبة إلى أخرى ، ويمكن تمثيلة بعملية تحول -
من البويضة إلى الدودة ومن الدودة إلى الفراشة » . (مقالات الجزء ٢ -
ص ٢٢٥) .

ولا يسمح المجال لدراسة كل رموزه في هذا البحث ويكفي أن نقول أن
السمة تظهر في قصائده وقصصه بشكل واضح لأنها ، في عالمها ، تشبه هكسلي
إلى حد ما ، وتظهر كذلك كلمة « برماني » في كتبه لما توحى به من قدرة
الإنسان على العيش في عالم الروح وعالم الجسد . ويرمز أبو رياح
Weather-cock إلى فلسفة لورنس وترمز البوصلة إلى فلسفة المتصوف .
فعندما حاول هكسلي اعتناق فلسفة لورنس وجد أنه كان يبعثر قواه في كل
اتجاه كأبي رياح دون هدف محدد وأصبح تحت رحمة كل هبة ريح تعصف
به كيف تشاء ولهذا يشبه نفسه في الفترة الأخيرة بالبوصلة .

ويعود هكسلي في الفترة الأخيرة من حياته إلى « باسكال » ويدرس
فلسفته مرة أخرى في ضوء تجاربه الجديدة وأصبح مستعداً ، وكان قد بلغ
الأربعين من عمره ، أن يكون مرشداً ومتصوفاً وأصبحت نماذجه في كتابه

« الفلسفة الدائمة ، المسيح عليه السلام والقديس جون ووليام لاو وبوذا ومجموعة من المتصوفين المسلمين والمسيحيين .

ويعرف وليم جيمس في كتابه « صنوف التجربة الدينية » ، هذا التحول بوجه عام في العبارة التالية : « التحول ، أو التجدد ، أو المولد الجديد ، أو أن تحظى بفضل الله ، أو أن تمارس الدين ، أو أن تكسب الثقة : ما هي إلا عبارات كثيرة تعنى وتشير إلى العملية - المفاجئة أو التدريجية - التي بواسطتها تصبح النفس التي كانت منقسمة وعلى علم بخطئها وتعيسة تحس بالنقص ، موحدة وعلى علم بصوابها وفي منزلة سامية وسعيدة ، ويصبح لديها سيطرة على الحقائق الدينية . ، ولم يكن هكسلي من هذا الصنف من الناس الذي يمكنه أن يمر بمرحلة تغير فجائي لأن التحول عند الانطوائ يتم تدريجيا ويسميه وليم جيمس Lysis ، بينما يتم التحول عند الانبساطى فجأة ويسميه وليم جيمس Crisis ومن أهم ملامح التحول أولا ، توحّد الشخصية ، وثانيا حدوث رد فعل يأخذ شكل استسلام النفس لمثل أعلى ويتبعه تحسن وتطور خلقى وثالثا ، ظهور نوع من التقبل التلقائي لما حوله وإعجاب بالكون وما فيه وهذا ما يعبر عنه هكسلي بقوله « إحساس بجمال الدنيا بالرغم من الموت والعذاب ، وما يهمننا في هذا المجال هو ذلك الإحساس بأن كل شيء في العالم جديد لما له من أثره في نظرة الأديب لما حوله . ويؤكد لنا وليم جيمس أن التحول من الممكن أن يحدث حتى ولو بقيت الظروف الخارجية المحيطة بالشخص كما هي . وكما يقول هكسلي إن التحول أو الاستنارة عملية فردية لا تشترك فيها الجماعات ، والتوبة عملية ضرورية وجزء هام من التغير الجذري في الشخصية وبدونها لا يمكن للإنسان أن يصل إلى أول الطريق إلى الخلاص . وما يطلق عليه وليم جيمس الاستسلام ، ويعتبره أول خطوة حيوية في سبيل تحقيق تكامل الشخصية وسعادتها ، نجده في أعمال هكسلي في الفترة الأخيرة . وهذا النوع من الاستسلام يختلف اختلافا تاما عن استسلام

المسائل الحائر لعقله وتفكيره وسعة اطلاعه أو استسلام عابد الملائك
لنزوات جسده وسيطرة الغريزة عليه واستلامه لذواته المختلفة . ففي
الاستسلام الجديد نوع من التخلي عن التفكير والعقل في سبيل الحكمة ،
نوع من الالتقاء بالذات التي تفكر في البحر ، في المحيط الذي يرمز إلى الله .
ونقرأ له في « الفلسفة الدائمة » : « لا يمكن للسرمدية أن تتدخل إلا إذا قام
الفرد عن طيب خاطر بعملية إنكار لذاته وهكذا يخلف فراغا يمكن للسرمدية
أن تسرى فيه . » وهكذا وبعد الفوضى المتناهية في فلسفة الاضداد وفشله
في التوفيق بين ذواته المتنافرة استطاع أن يهتدى إلى أول الطريق وينمى
ويقوى إرادته . ولكن تنظيم الإرادة وتدريبها ، كما يقول هكسلي ، لا بد
أن يصاحبه تنظيم وتدريب للوعي ذاته . ولتدريب الوعي هذا كان لزاما عليه
أن يفرق بين الأنا والهي ، بين الذات العليا والذات ، بين الإرادة السطحية
والإرادة العليا . ولكي يحصل على « عذرية العقل ، Virginity of Mind ،
أو براءة الطفولة يعترف هكسلي أنه « كان لا بد من تحول ، مفاجئ . أو
تدريجي ، لا في القلب فقط ، ولكن في الحراس والعقل المدرك وهذا التحول
هو ما أطلق عليه الإغريق كلمة Metanoia ، ذلك التغير الكلي الجوهرى
للعقل . »

٩ - التحول في قصصه :

من الصعب في أى عمل أدبي وصف عملية التحول ذاتها ، ولهذا لا نجد
في قصصه بعد « ضرير في غزة » وصفا مباشرا للتجربة ذاتها ولكننا نجد رد
فعلها في تصرفات الشخص الذي مرت بهذا التحول الذي أدى إلى خلاص
نفوسها . والطريقة المناسبة في هذه الدراسة هي مقارنة المتصوف أو المستنير
وتتميز شخصيته بالصفاء واليقظة والهدوء ووحدة الشخصية والهدف والمحبة
والتواضع بالشخص المزدوج الشخصية الحائر الذي يقاسى من الاحباط
(١٧ م - أعلام القصة)

والقلق والحيرة والانقمام والتعالى . وليس من المصادفة أن قصته « ضرير في غزة » ، ١٩٣٦ ، « لا بد للزمن من وقفة » ، ١٩٤٤ من القصص التي فيها استرجاع لتجارب الماضي وتأملها في ضوء التجارب الحالية ، ويقدم إلينا هكسلي في هذه القصص (« ضرير في غزة » ، « لا بد للزمن من وقفة » ، و « ومر صيف بعد صيف ») شخصية جديدة — شخصية الحكيم ، فزى ميلر في « ضرير في غزة » ، وبروبر في « ومر صيف بعد صيف » ، وأخيرا برونو في « لا بد للزمن من وقفة » ، وهذه الشخصيات تلعب أدوارا هامة في هذه القصص الثلاث ولو أن كلا منها يلعب دورا غير رئيسي ، والسبب ، كما يقول هكسلي ، هو أن « تاريخ حياة القديسين يعتبر عند المثقفين وذوى العقول النشطة نوعا لا يستحب من الأدب . » أما الراوى في قصته السينمائية « الغوريلا والجوهر » ، فهو مجرد صوت يسمع ولا يرى ويمثل صوت هكسلي أو الحكيم كما في قصصه الأخرى . ونلاحظ أيضا أن المريدن أو طالبي الخلاص أمثال أنتوني في « ضرير في غزة » ، وسباستيان في « لا بد للزمن من وقفة » ، يدونون ما يعين لهم من أفكار في مذكرات تعتبر مادتها تأملات في تجاربهم الماضية في ضوء ما حصلوه في حاضرم . ولا تهتم قصص هكسلي بسرد تفاصيل التحول ولكنها تعنى برصد نتائجها في شخصية البطل أو في علاقاته بالعالم من حوله وبالأخرين أو في التغير في إدراكه ووعيه أو في انفعالاته وردود أفعاله .

ففي « ضرير في غزة » ، يعطينا هكسلي تسجيلا لتصرفات أنتوني قبل وبعد تصوفه فقد مر البطل بتجربة صوفية غيرت مجرى حياته كلية . فهناك فرق واضح بين إدراكه لوحدة الكون وهو في سن العشرين وإدراكه لهذه الوحدة وهو في سن الثالثة والأربعين . والأجزاء التي نجدها من يومياته في القصة لا تصف هذه التجربة بالتفصيل ولكنها تعتبر نهاية فترة الإحباط التي كان أبطالها « دينيس » ، و « جمبريل » ، و « كالامى » ، و « فيليب كوارلز » .

ويبلغ هكسلى فى شخصية « أنتونى » ، نهاية الشوط بعد مرحلة طويلة من التكيف ثم إعادة التكيف .

وفى « لا بد للزمن من وقفة » ، تعنى الخاتمة التى تتضمن تأملات سباستيان بنتائج التحول والخلاص ولا تصف التجربة ذاتها ، وأسلوبها يختلف اختلافا كليا عن أسلوب صاحبها سباستيان وهو فى سن العشرين ، وعندما ترك هكسلى هذه التأملات إلى نهاية القصة أعطانا الإحساس بأن بطل قصته قد طلق الماضى بما فيه من احباط وفشل وهزيمة وقلق وضجر بالحياة . ونلاحظ أن تأملات « أنتونى » فى « ضرير فى غرة » ، تتخلل القصة من أول فصل إلى آخر فصل فيها وهذا يدلنا على أن « أنتونى » كان فى دور التحول وفى طريقه إلى الاستنارة . وتأملات سباستيان فى مجموعها أقل من تأملات أنتونى فى « ضرير فى غرة » ، أو بما دونه فيليب فى مذكراته فى « تقابل الألمان » ، لأن هكسلى كان يريد من بطله الجديد أن يقارن بين ماضيه البعيد وحالته الراهنة وكان قد أدرك عبث الندم والتمادى فيه . وهكذا يصف لنا هكسلى طريق سعيه سواء فى كتب رحلاته أو فى قصصه وطوافه أولا « بدون بوصلة » ، كالمسائل الحائر إلى بعثرة قواه فى كل اتجاه فى الفترة الثانية إلى طوافه « ببوصلة » - ومن الازدواج إلى التعدد إلى الوحدة - ومن الاهتمام بالكلمات والأفكار كغاية إلى الاهتمام بالحياة إلى مرحلة الصمت وطهر القلب - من عالم بدون طريق إلى مئات الطرق المضللة إلى عالم بطريق واحد - وأخيرا من « أنا أفكر فانا موجود » ، إلى أنا أعيش فانا موجود ، إلى مرحلة الاعتراف بأن الله يفكر فيه فهو موجود .

وإذا حاولنا أن نبحث فى أعمال هكسلى فى الفترة الأخيرة عن دلائل تشير بوجه قاطع إلى هذا التحول فى حياته فلن نجد إلا النتائج الإيجابية لهذه الاستنارة لأنه كان يعلم أن عملية « اجتراح التجارب الماضية » ، والتحسر عليها أو حتى تذكرها عملية خطره . « فوخز الضمير كما يقول معظم المهتمين بعلم

الأخلاق يعتبر من العواطف السيئة . فإذا كنت قد أخطأت ، فتب ، وحاول أن تصالح ما أفسدت ، ثم وجه نفسك إلى طريق التصرف بطريقة أحسن في المرة القادمة ، ولا تتحسر أو تفكر فيما فعلته من أخطاء في الماضي ، فالتمرغ في الوحل ليس أحسن وسيلة للنظافة . ، وليس هناك ما يمنع من تذكر ما فات ولما كان إذا كان اجترار هذه التجارب سيشتغل المتصوف عن الحاضر فهذا معناه ، كما يقول هكسلي ، الفردوس المفقود . وتذكر أيام خلت قد يكون أدبا عظيما ولكنه من الناحية الدينية لا طائل تحته ، ففي محاولة استعادة الزمن الضائع فقدان للفردوس ، وفي فقدان الزمن استرداد للفردوس . ويتضح لنا الآن الغرض من عنوان قصته ، لا بد الزمن من وقفة ، وتحمل الترجمة الفرنسية لهذه القصة عنوانا مشابها وهو « استرداد الأبدية » .

١٠ - الفلسفة الدائمة The Perennial Philosophy

يبدأ هكسلي ، بعد مرحلة الاستنارة في الارتفاع بمستوى مثله العليا وكان قد أدرك أن هناك طريقة واحدة فعالة للتغيير الجذري المستمر في الشخصية : « هناك طريقة واحدة فعالة لتغيير الشخصية تغييراً جذرياً دائماً - وهي طريقة المتصوفين » . وقد ضمن هذه الفلسفة في كتابه « الفلسفة الدائمة » ١٩٤٤ بعد أن اعتكف عامين في معبد تابع لجمعية الشيدا في كاليفورنيا . و « الفلسفة الدائمة » تركيب فلسفي يؤدي إلى غايات إيجابية لمن يمارسونه وتعالج هذه الفلسفة التجارب الإنسانية ، ما كان منها نفسياً أو روحياً أو خلقياً ، وفكرتها المحورية فكرة صوفية روحية . وتتضمن الفلسفة نظاماً ميتافيزيقياً يعترف بوجود حقيقة إلهية ضرورية لوجود العالم المتعدد الذي يتكون من أشياء وأرواح وعقول - وهذا هو الهدف الرئيسي فيها . والفلسفة الدائمة إلى جانب ذلك كله ، فلسفة تعترف بأن في روح الإنسان سمة من سمات الحقيقة الإلهية ، أو كما يقول جيرالد هيرد ، أحد أصدقاء هكسلي وعضو عامل في جمعية الشيدا ، نوع من الحدس ببنوة الإنسان للحياة التي تسند العالم

كله وبالإخاء مع كل عيال الله ، . والفلسفة اخلاقيه لأنها تضع غاية الإنسان في معرفة قانون الوجود الشامل في الحلول والتسامى ويلخصها لنا جيرالد هيرد في هذه الكلمات : « ولاء لا حد له تجاه هذه الحقيقة السامية العظيمة وإنكار شديد لأي شيء قد يقف في طريق بلوغ هذا الولاء : وثانياً ، العزم على اعتبار كل المخلوقات وكأنها عيال الله ، . »

ويعتبر هكسلي فلسفته هذه القاسم المشترك الأعظم في كل العبادات . وقد أشار إليها في كتابه « وسائل وغايات » ١٩٢٧ . ويعتبرها فلسفة عملية يجب على من يريد ممارستها أن يكون صافي القلب محباً للناس . وتعاليم الفلسفة يمكن حصرها في هذا الشعار « انت هذا ، ويمكن إدراك هذا الشعور والوصول إلى هذه التجربة الروحية بطرق ثلاث : بالعمل داخل نفوسنا ، أو بالعمل من الخارج أو بالعمل من الداخل والخارج في وقت واحد . والطريقة الأولى نوع من الجوانية وسائلها الاستبطان وإنكار الذات والرهينة والطريقة الثانية هي فلسفة الحلول أو نوع من « البرانية » والطريقة الثالثة تجمع بين الاثنين وتؤمن بتسامى وحلول الروح الأزلية . ويفضل هكسلي الطريقة الثالثة لأنه يعتقد أن فلسفة الحلول فلسفة غير متكاملة والطريقة الأولى قد تؤدي إلى عزل المتصوف عن مجتمعه وتعدده إلى السعي وراء خلاص نفسه وحدها دون إرشاد الآخرين . والإيمان في تركيب هكسلي إيمان تجريبي لأن الغاية هنا ليست المطلق الذي تعنى به الميتافيزيقا ولكنها « شيء كامل يحبه الإنسان ويعبده ويحمله أكثر من الإله الإنساني أو أي تجسيد له . » وتجمع الطريقة كذلك بين العمل والتأمل في آن واحد وقانون الوجود الشامل لا يمكن الوصول إليه عن طريق العقل ولكن طريق الممارسة والتجربة بالاستعانة بتجارين روحية خاصة . ويقول هكسلي إن قانون الوجود الشامل هو سر وجود الحقائق وإدراكه يعتبر قفزة من جانب العقل الواعي بعيداً عن الكائنات المحدودة ومنفعتهم إلى إدراك مباشر لكيثونة الأشياء .

فالعالم فى تغير مستمر وفى تتابع لا نهائى ولكن أساسه ، تبعا لهذه الفلسفة ، هو الآنية اللازمانيّة للروح القدس . ويصعب ترجمة هذه التجربة المباشرة إلى الفاظ يتقبلها المنطق والعقل . ويقول هكسلى : « فلا بد إذن أن يغض المتصوف النظر عن مشا كل اللغة والفلسفة ، أو على الأقل ينحيزها إلى مرتبة ثانوية ، ويركز اهتمامه على الطرق العملية التى تقوده من المعرفة إلى الفهم . »

وعندما يستعمل المتصوف كلمة « الفهم » ، كما يقول هكسلى ، « فهو لا يعنى أنه يعرف الله ، إذا كانت كلمة « يعرف » تعنى « تركيب تجربة جديدة فوق نظام فكرى مستمد من تجاربنا الماضية » ؛ ولكن الفهم عنده يعنى الحدس ، الإدراك المباشر ، استنارة داخلية تتلاشى فيها العلاقة بين الموضوع والذات التى تتأمله . فجوهر التجربة الصوفية هو الوحدة مع تيار الحياة المتغير ووحدة مع الكل الذى يجمع كل كائنات الدنيا . والفهم عند هكسلى يمكن تشبيهه بحاسة سادسة أو إدراك حسى فائق وقدرة على تقبل المعطيات المباشرة للشعور أو ملكة روحية تفوق العقل والمعرفة وتهتم بالمعطيات على كل مستويات التجربة . والفهم إدراك مفاجئ . أولى للمادة الخام وهو بعيد عن الكلمات . ولهذا فليس الفهم إدراكا وبالتالى لا يمكن توصيله .

وليس هناك داع لتعليم وتثقيف وتمارين هذا الفهم ولكن من الضرورى تكيف الملكات الأخرى التى تعطل الفهم . والفهم هو الملكة التى تمكننا من إدراك المطلق من خلال المحدود والنظام الكونى من خلال النظام الطبيعى والأزل من خلال الزمن والنيرفانا من خلال السامسارا أو المتغير . وإذا لاح الفهم فستبدو الحياة جميلة وسيرى الإنسان الأزل يتوهج خلال الزمن . « ومع الفهم يحدث زواج سعيد بين الغايات والوسائل » كما يقول ، « وتظهر الحكمة التى هى تحقيق اللازمى عن طريق المتغير ، وتظهر المحبة التى هى تطبيق عملي للحكمة . » ، ويؤمن هكسلى بأهمية النظرة الصوفية

وفلسفتها ويقول: « سوف تفنى البشرية إذا لم يكن هناك رؤى . فالتصوفون قنوات يجرى من خلالها القليل من المعرفة الصحيحة بالحقيقة إلى عالمنا الذى يزخر بالجهل والوهم . فالعالم الذى يخلو من التصوف عالم ضرير مجنون » .

وكان اهتمام هكسلى فى بدء حياته الأدبية بالتصوف اهتماماً أكاديمياً عقلياً ، وكانت الحياة والحقيقة والسكون أشياء غريبة للمتسائل الحائر ، وبعد « ضرير فى غزة » ، وحتى نهاية حياته الأدبية تبدأ كتبه فى معالجة التصوف بطريقة أخرى ، وقد أعطاه التصوف القدرة على الإجابة عن أسئلة كثيرة وإدرك بعد تصوفه أن العالم المتعدد عالم واحد وأن كل أجزاء العالم ترتبط بعلاقات مباشرة أو غير مباشرة بالأجزاء الأخرى مهما كانت بعيدة فى الزمان والمكان . فالوجود كثرة لا متناهية ولكل جزء وجوده ووظيفته .

١١ - أبواب الحس الإدراكى : The Doors of Perception ١٩٥٤

لقد كان هكسلى يحس من آن لآخر بوجود باب يستطيع منه أن يلج إلى عالم روحى غريب ، وقد دفعه هذا الإحساس مراراً إلى القيام بمغامرات عديدة للاستطلاع والاستكشاف . وفتح أبواباً عديدة ونفذ منها إلى داخل ما أفضت إليه ليجد نفسه فى مكان قفر :

« فى بيت أبى منازل كثيرة . ولقد أعطت الطبيعة للإنسان مفاتيح اعدد كبير من هذه المنازل الميتافيزيقية . ويقترح علينا عابد المذات أن يستعمل الإنسان كل المفاتيح بدلا من أن يلقي بها كلها ويستبقى منها واحداً فقط ، .

وأضئ هكسلى وقتاً طويلاً فى البحث عن هذا المفتاح ، وعندما عثر عليه وجد أن المنزل الذى يجب عليه أن يدخله ، كما يقول ، هو « صومعة معرفة النفس » .

ومنذ ذهابه إلى كاليفورنيا في عام ١٩٣٧ واستعادته لقوة الأبصار بشكل ملحوظ وانضمامه إلى جمعية القيدا الصوفية وهو يكتب عن التصوف بعد أن درس فلسفة القيدا مع أحد المتصوفين الهنود ولم يمنعه من التصوف في الفترة الأولى سوى الاعتداد بذكائه وكان عليه السكى يدخل إلى قصر الايمان أن يلقى بأشياء كثيرة عند مدخله وعلى الأخص عقله الواعى ومنطقه وطريقة تفكيره ودهشاته . . . ويعلق على تجربته بعد تعاطى عقار المسكاليين في كتابه « أبواب الحس الادراكى » بقوله : « وبالنسبة لآى إنسان يهتم بالانسانية وبقدراتنا الكامنة العظيمة ، فإن أى تجربة ، حتى ولو كانت ساذجة ، لها فائدتها إذا كانت ستشير إلى مايجب علينا ألا نفعله ، ويسجل في هذا الكتاب الخطوات اللازمة للدخول في حالة من الوعى الصوفى المفتعل عن طريق عقار المسكاليين ثم حالة التصوف وما لها من مغزى ثم انتهاء التجربة وعودته إلى المتعدد . فى « أبواب الحس الادراكى » فتح هكسلى الباب على مصراعيه عنوة ودخل وتعلم وخرج شخصاً مختلفاً تماماً .

« فالإنسان الذى يعود من هذا الباب فى الجدار سيكون إنساناً مختلفاً عن الإنسان الذى دخل منه . سيكون حكيماً ولكن ثقته العمياء بنفسه ستقل ، سيكون أسعد مما كان ولكنه سيكون أقل رضى عن نفسه ، سيكون متواضعاً وسيعترف بجهله ولكنه سيكون مستعداً لفهم العلاقة بين الكلمات والأشياء ، وبين الفكر المنظم وبين هذا السر الذى لا قرار له والذى سيحاول دائماً ، وعبثاً ، أن يفهمه . »

وفى التجربة الصوفية يفهم الفرد ما هو المقصود بوحدة الكون والشخصية ويجلب له هذا الإحساس سعادة لا مثيل لها ويبدأ فى التخلص من العراك الداخلى فى شخصيته . ويقول هكسلى إن التأمل أو التجربة الصوفية تمكنا

من « معرفة الثلاثين أو الأربعين جلدأ التي ترقد ذاتنا تحتها ونكتشف أنها «الهي». فهناك إنسان حقيقى ، إن لم يكن قديساً ، فى المادة الخام التى تبدأ بها حياتنا ، ولـكننا نعمل على الإبقاء على هذه الأقنعة الخيالية ونهمل ما هو حقيقى ، ولـكن هذه التجربة تساعد على التخلص من الازدواج والتعدد .

ولا يقول هكسلى أن تجربة «المسكالين» تعادل التجربة الصوفية الأصلية أو الاستنارة الفعلية ولـكنها ، فى حد ذاتها ، تجربة مفيدة وعلى الأخص بالنسبة للعقلانيين لأنها أكدت له قيما روحية طالما تأقت نفسه إليها وساعدته على التخلص أثنائها ، كما يقول ، من الأنا المجنونة التى كانت تصر على توجيه أموره .

١٢ - الدين والتصوف عند هكسلى

يعتبر الدين والتصوف عند هكسلى لفظين مترادفين وينطوى هذا التصوف على تجارب شخصية صوفية كما أن الحياة الدينية الصحيحة فى نظره هى حياة المتصوف . والمتصوف أو صاف منها التـكشف الجسدى والذهنى والزهد والصفاء والطاعة والتواضع . ويعرف هكسلى التصوف من خلال عرضه لخصائص حياة المتصوف ومظاهرها ونتائجها على صاحبها وعلى الناس . ويبين لنا فى « الفلسفة الدائمة » وفى « أبواب الحس الإدراكى » وفى « الجنة والجحيم » أن الوصول إلى الحقائق الصوفية العميقة لا يأتى عن طريق البرهان العقلى ولـكن عن طريق الفهم الذى يدفعنا دائماً إلى السعى الدائب للوصول إليها .

والطريق إلى الواحد أو النيرفانا عند هكسلى يبدأ من السامسارا أو المتعدد أو هذا العالم الجليل الذى نجده ممثلاً فى كتبه فى الفترة الأخيرة فى

شكل فقرات يصف فيها مواطن الجلال فيه بعين لا تغيب عنها الدهشة . ويسأل أنتوني في « ضرير في غزة » ، أمن الضروري أن يصل الإنسان إلى النير فانا عن طريق السامسارا ؟ .

« ولماذا اذن هذا التعدد ؟ ... لماذا يستمر شر هذا الانفصال ؟ انفصال القديس عن القديس ، وانفصال الاشكال الطبيعية بعضها عن بعض ؟ ، ويجب .

« لا يستطيع إنسان أن يأكل من أجل إنسان آخر ، ولا بد لانتقام من أن يفكر ويتمتع ويقاسى ويلبس ويشم ويسمع ويذوق في عزلة عن الآخرين . والرجل الطيب يعيش في عالم أقل انعزالا عن عالم الرجل الشرير ، ولكنه عالم مقفل ، تماما كالذرة المغلفة . وبالطبع إذا كان لا بد من أن يكون هناك وجود - وجود كما نعرفه - فلا بد للكائنات من أن تنتظم في عوالم مغلقة ، وعقول كعقولنا « لا بد لها أن تدرك الوحدة دون فوارق وكأنها لا شيء . تناقض لا مفر منه لأننا نريد أن تكون س = ١ واسكننا نجد ، في الحقيقة ، أن ١ = صفر . »

والوصول إلى الحقائق الصوفية العميقة لا يأتي عن طريق البرهان لأنها حالات سريعة الزوال يشعر المتصوف عندما يعانيتها كما لو كانت إرادته الشخصية معطلة . وقد وصل هكسلي من خلال دراساته في علم النفس وأدب المتصوفين إلى حقيقة هامة وهي أن شعورنا اليقظ الراهن ليس إلا نمطاً واحداً من أنماط الشعور الإنساني . فلكل شخص ، كما يقول لنا في مقاله « تعليم الإنسان البرمائي » ، (أدونيس والأبجدية) نفس واعية تحتها خمس أو ست نفوس أخرى مميزة . فهناك أولاً النفس المحلية ، التي كونتها العادات والأفعال المكيفة ، تلك النفس التي تحتفظ بذكرات الماضي وتعذيبها العواطف المكبوتة ويهتم علماء النفس بهذه المنطقة ، وبعدها تأتي النفس

الغائية أو الإنجيلي وهي التي تعتني بالجسد والتي تقوم فعلاً بالمشي عندما نريد أن نمشي والتي تتحكم في ضربات القلب وإفرازات غددنا وتسير عملية الهضم وتساعد على التئام الجروح وتعيد إلينا الصحة بعد المرض . ثم تأتي النفس التي تسكن ذلك العالم الغريب الذي نستمد منه إلهامنا وهي النفس التي ناجاها سقراط والتي حلت بنص « قوبلاي خان ، للشاعر كوليرج والتي أملت « الملك لير ، و « كتاب الأموات » ، وهي المسئولة عن كل نكتسبه من حكمة وما نحصل عليه من إستزادة في القوة الحيوية أو الذهنية . وبعد هذا العالم يوجد العالم الذي يطلق عليه يونج « عالم النماذج الأولية ، برموزه المتعددة التي نشارك فيها جميعاً . ثم بعد ذلك يأتي عالم الرؤى ، حيث نعيش الا - أنا ، ذلك العالم الذي يزخر بالحقائق التي لا تمت لعالم الإنسان المرئي بصلة . ولا بعالم الرموز أو النماذج الأولية وهو العالم الذي استمد منه اللاهوتيون أفكارهم عن الجنة والجحيم . وأخيراً يأتي العالم الذي تسكنه الروح القدس أو الضوء الساطع أو الآخرة .

ولا يمكن للإنسان من أن يرتقى إلى هذا المستوى ويتمتع بالرؤية الحقة دون الغوص في الواقع المحسوس ، فالمولد الثاني أو البعث أو الحركة الصاعدة لا تبدأ في العدم أو في الفراغ أو في النيرفانا .

بل يتركز على الأرض التي نعيش عليها وهي نقطة الانطلاق إلى الواحد المطلق . والانطلاق أو الصعود عند هكسلي هو عودة إلى الأصل وكما يقول ت . س . اليوت (من ترجمة للدكتور مهدي علام) .

باب خفي غير منسى لنا منه ولجنا نحن بيداء الظنون
فإذا الذي كننا نظن مفازة لم تمشي فيها أرجل للعالمين
هي نقطة البدء التي منها ابتدأنا السير يوم خرجنا مستكشفين

الدوس هكسلى : المراجع

ALDOUS HUXLEY

- 1—Atkine, J. : Aldous Huxley, London, John Calder, 1957.
- 2—Henderson A. J. : Aldous Huxley, London, 1935.
- 3—Gerard, A. : A la rencontre de Aldous Huxley, Paris, 1947.
- 4—Savage, D. S. : Mysticism & Aldous Huxley, New York
The Alicat Bookshop Press, 1947.
- 5—Van, G. : St. Thomas and Mr. Huxley : On Being Human,
London 1933.

Selected Periodicals :—

- Freeman, J. : Aldous Huxley, The London Mercury, Sept. V,
1927, pp. 391—399.
- MacCarthy, D. : Notes on Aldous Huxley, Life and Letters,
Sept. V, 1930, pp. 198—209.
- Kooistra, J. : Aldous Huxley, English Studies, Oct. XIII, 1931,
pp. 161—175.
- Bethell, P. : The Philosophy in the Poetry of Aldous Huxley,
Poetry Review, Sept. XXIV, 1933, pp. 359—368.
- Alexander, H. : Lawrence and Huxley, Queen's Quarterly,
Spring, 1935, pp. 96—108.
- Kirkwood, M. M. : The Thought of Aldous Huxley, University
of Toronto Quarterly, Jan. VI, 1937, pp. 189—194.
- Bedoyere M. de la : Huxly's Challenge, Dublin Review, Jan. CCII,
1938, pp. 13—26.
- Roberts, J. H. : Huxley and Lawrence, The Virginia Quarterly
Review, Autumn XIII, 1937, pp. 546—557.
- Rolo, C. J. : The Atlantic, August, 1947 pp. 109—115.
- Sutherland, A. : Aldous Huxley's Mind at Large, The Twentieth.
Century, May CLV, 1954.
- Meyerhoff, H. : In the Mind's Antipodes, The New Republic,
May 14, 1956.
- Barrett, M. : Aldous Huxley, Merchant of Mescaline, The Reporter,
March 2, 1954.
- Surgue, T. : Enlightenment on Our Unenlightenment, Saturday
Review, June 24 1950,